قصة وجودية

صداقة عجيبة !..

للكاتب الفرنسي جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

ـ ١ ـ

يستيقظ برونيه (١) ، فيقفز الى الارض، ويضيء النواسة ، وتنطبع جواهر البرد في لحمه ، وترقص الظلال ، انها رائحة الليل والصبح ، رائحة السعادة . وفي الخارج ، في الظلام ، هناك مئتا كوخ ميت ، وثلاثون الف شخص ينامون : ويضع برونيه ، وهو واقف وحده ، يده على خشب الفراش ، وينحني فوق كومة صغيرة من النوم :

ـ وقوفا !

فينفض مولو رأسه من غير أن يفتح جفنيه،

(١) أحد ابطال ثلاثية « دروب الحرية »، وهو ذو مسلك شيوعي . والواقع أن هذه القصة تشكل الفصل الاول من الجزء الرابع من « دروب الحرية » وهو بعنوان « الفرصة الاخيرة » ولكن سارتر لم يتمها حتى الآن غير أن ذلك لم يضر بالرواية ، لان كل جزء منها يشكل وحدة مستقلة بذاتها .

وينفغر في تلك السحنة العمياء فم كبير لشخص متبصر أبعد حدود التبصر :

ـ كم هي الساعة ؟

ـ هي الساعة التي ينبغي ان تنهض فيها .

ويتنهد لولو فيجلس ، مغمض العينين :

ـ لا بد ان الماء قد تجلد هذه الليلة .

وفتح عينيه ، فنظر الى ساعته ، وبعث صرخة ذهول يومية :

ـ يا ليسوع مريم ! الساعة الخامسة .

ويبتسم برونيه ، ويبكي مولو ، ويفرز يديه في شعره فيحرث رأسه ، ويحس برونيه انه من حجر : حجر بارد جذل ويقول مولو :

ـ الساعة الخامسة ! ليس هناك كوخ ملعون في المعسكر كله الا كوخنا الماخور الذي يقبل فيه الجماعة ان ينهضوا في الخامسة حين لا يطلب منا الالمان ان نكون واقفين قبل السادسة ، عند هذا الحد ليست القضية بعد قضية أسر ، بل قضية أشغال شاقة .

وتردد ، وبحث ، ثم التمعت عيناه فجأة ، فقذف بصوت واثق فرح لقطته الصباحية الدائمة :

ـ فاشيستي قذر !

فضحك برونيه مسرورا : انه يحب كل ما يردد . البرد ، الظلام ، فاشيستي قذر : ستة أشهر في المعسكر وصباح واحد لا يتغير قط ، يعود كل صباح ، اكثر فاكثر ظلاما ، واكثر فاكثر بردا ، واكثر فاكثر عمقا ، وهو أكثر فاكثر صباحه . وانبثق لولو من السرير ، وهو يئن من البرد ، فلبس قميصه ، وارتدى بنطاله . ونظر اليه برونيه بلا سرور وهو يتحرك حول الموقد : كان يود لو تمتع بالبرد مدة أطول .

ـ لا تبذر في الفحم ، فهو سوف يعوزنا .

وكان مولو قد أشعل ورقا ، وكان القش يفرقع ، وعاد فنهض محمرا كله ، فضحك في وجه برونيه :

ـ من تعتبرها فراشتك ؟ ومتى تركتك في العوز ؟

ومد سبابته نحو كيس مليء بالاكر ، وقطب برونيه حاجبه :

ـ من أين أخذت هذا ؟

ـ من المطبخ .

فقال برونيه مستاء :

ـ لقد سبق لي ان منعتك من ذلك !

فقاطعه مولو مغتاظا :

ـ عفوا ! أتدري اين يذهب فحم الطباخين؟ انه يذهب الى الالمان في القيادة ! فما دام الامر كذلك ، فالافضل ان نفيد منه نحن !

فلم يجب برونيه : كان يحلق ذقنه. وعادت وجنتاه الى الحياة ، تحت عضة آلة الحلاقة، وتسللت الحرارة في جسمه كأنها اغراء .

ـ شوكولا ؟

ـ نعم .

وشخر الموقد ، ووضع مولو فوقه قصعة ملأى بالماء ، وأخرج من قربته لوحين من الشوكولا ، فقذف بهما الى القصعة ، وقال وهو ينظر اليهما يذوبان :

ـ انك تحلق ذقنك باكرا .

ـ انني خارج .

ـ الى أين ؟

ـ الى أين ؟

ـ هناك من يصل هذا الصباح ، رفاق كانوا يعملون في فرنسا ، ونصيب كوخنا عشرة منهم .

قال مولو مرحا :

ـ جنود شبان !

وحرك ماء القصعة بشفرة سكينة ، ثم هز رأسه :

ـ يا للمساكين ! ليس ذلك لانهم سيكونون هنا في وضع أسوأ منه في أي مكان آخر ، بل لان عليهم ان يعتادوا .

وكان سائل أسمر يخفق في القصعة ، تحمله فقاعات وتنفجر ، فتقفز قطيرات على الموقد وتبيض وهي تئز . وتناول مولو القصعة بمنديل فوضعها على صندوق ، وأقبل برونيه يجلس الى قربه .

ـ أدخل .

فأمر زيمر ، المعرض ، رأسه الفط من فتحة الباب . فقال مولو :

ـ لقد نهضت ؟

ـ هذا بسبب اولاد القحبة اولئك القادمين من فرنسا . يجب ان اذهب فأرى اذا لم يكن بينهم مرضى .

وقطب أنفه :

ـ هذه رائحة شوكولا .

فقال مولو بحيوية :

ـ لقد تلقيت هدية .

ـ انك لمحظوظ .

وسأل برونيه منزعجا :

ـ كفى ! ماذا كنت تريد أن تقول لي ؟

ـ ما يتعلق بكونيار . انهم ينزلونه اليوم الى المستشفى . انه مصاب بالزحار .

قال برونيه : ـ شكرا .

واختفى الرأس ، وانغلق الباب من جديد .

وأخذ مولو يقص شرحات من رغيف خبز كشر :

ـ أتريد بعض القطع المغموسة ؟

فقال برونيه بجفاف : ـ لا .

قال مولو من غير ان ينفعل :

ـ انت على خطأ . انك لا تعرف ما هو لذيذ .

ونهض فأخذ القدحين وصب فيهما سائل الشوكولا . وأشار بأصبعه الى قدح كونيار الذي ظل معلقا بمسمار :

ـ ان ذلك يحزنني . وانت ؟

فهز برونيه كتفيه : لقد كان كونيار كسولا.

وسأل مولو :

ـ من تراك ستستبدل ؟ شنايدر ؟

ـ طبعا ، شنايدر .

قال مولو : ـ انا موافق . فهو لن يوسخ.

ونهض برونيه فارتدى معطفه . وتناول مولو المكنسة . وفتح برونيه الباب ، فصاح مولو :

ـ الباب ! انك تجعل حرارتي كلها تهرب .

وأغلق برونيه الباب ، فوجد البرد من جديد في الممر الطويل الذي يشق الكوخ : انه البرد السرمدي ، وكانت حزم صغيرة من الثلج السرمدي قد سقطت من النعال والمعاطف ، في نفق الليل والريح هذا ، فتراكمت وقسمت ، ينبغي ان افول لهم ان يمسحوا نعالهم خارجا ، والا فسوف ينتهي بهم الامر الى افساد الارض عندي ، واصطفق باب ، وفرقع الخشب ، وفي نهاية النفق ، انتفخ ضباب رمادي غائم ، في الصباح . وكان برونيه واقفا في الليل ، في البرد ، في الريح، في الثلج ، على روابي الصباح ، يتأمل النهار: في الساعة العاشرة ، شانسولييه ، تقرير عن نشاطه في ردهة المرضى ، مضاعفة الدعاية والتجنيد ، ارمان ، ظهرا ، سنبت نهائيا في قضية معجون اوراق الآلة الكاتبة ، في الساعة الثالثة ، لجنة عند برادا ، الطلب الى المنظمة ان تأخذ على عاتقها الاسرى الاسبان الذين تعزلهم ادارة المعسكر وتجيعهم ، وسيكون هذا عملا ، سيكون فيه خطر ، وهذا ما يوحد . وتنفس بقوة ، وسال البرد فيه من الانف ، وانفجر في عروقه باقات فرح . وخلف الابواب ، كان جمع ينهض ، منسلا ، ملامسا، ساعلا هامسا ، الجميع ينامون الا جماعتي .

ودفع بابا : نواسات على الطاولة ، وظلال كبيرة تقفز على الجدران .

ـ ليس من مرضى ؟

بسمات واثقة ، وأسنان تلتمع .

ـ ليس من مرضى ؟

وفتح برونيه وأغلق ابوابا ، وكانت الحركة قائمة في كل مكان ، وكان شخص يغني وآخر يعزف على الهارمونيكا ، انهم جذلون ، والبرد والحقد يحفظانهم ، وهذا ما صنعته بهم .

وكان في غرفة لامبير غلام ضخم عار يختبيء وراء ظل سريره ، فأخذه برونيه من تحت ابطه ، وجذبه وأسقطه على أربع وسط الحجرة ، فضحك الجميع ، واحتج الفتى الضخم في مزاج طيب :

ـ ألا يستطيع الانسان بعد ان ينام كفايته؟

ـ لقد نمت بما فيه الكفاية ، ايها الضخم المليء بالحساء .

ـ ليس هذا ما أقصد ، وانما كنت أحلم حلما جميلا .

فسأله لامبير :

ـ أكنت في أدق وضع مع صاحبتك الصغيرة ؟

ـ يا عيني ! كنت في مركز المراقبة وراء رشاش ، وكان الالمان في الاكواخ بدلا منا .

قال برونيه :

ـ لا تحزن . فسوف يحدث هذا يوما .

وأقبل لامبير فجذب برونيه من كمه :

ـ آكلو المكرونة ، أصحيح انهم قد هزموا ؟

ـ نعم .

فانتصب الاشخاص ، وأداروا نحو برونيه عيونا قاسية :

ـ أليس هذا كذبا ؟ أليس شائعة ؟

فنظر برونيه مواجهة الى تلك السحن المتوحشة :

ـ ألم تسمعوا الاخبار اذن ، مساء أمس ؟

ـ لم يكن لدينا الوقت .

وكان قد ركب لدى « تيبو » جهاز استقبال في علبة للصابون . وقال :

ـ أرسلوا أحدا الى تيبو . هناك اخبار طيبة .

فالتمعت العيون ، وزين الحقد والفرح خدودهم . وأحس برونيه بقلبه يخفق . هذا ما فعلته بهم .

ـ في البانيا ، يا جماعة : لقد وضع اليونان لهم هذا ، فهم الآن في شر هزيمة .

وأغلق الباب خلفه ، وكان منفعلا : سوف يبدأون نهارهم في المجد . وفتح بابا اخيرا ، أفضل الابواب : فعلى ثمانية عشر نزيلا ، سبعة عشر شيوعيا ، سبعة عشر رفيقا صلبا ، يندسون في كل مكان ، فيلتقطون المعلومات وينقلون كلمات السر ، وكان الثامن عشر هو شنايدر . ودخل برونيه وابتسم : هؤلاء ، كان يبادرهم هو دائما بالابتسامة :

ـ مرحبا يا رفاق !

وذهب يجلس على المقعد الخشبي، فأحاطوا به . ولم يكن لديه شيء خاص يقوله لهم ، ولكن تلك أفضل لحظات النهار . وأخرج غليونه من جيبه فحشاه وهو ينظر فيما حوله: كل شيء نظيف ، والارض الخشبية كانت قد كنست ورشت بالماء ، اما شنايدر ، فكان

صدر حديثا

سلسلة الجوائز العالمية

السأم ...

اخر رواية للكاتب

الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

الحائز على جائزة

فياريجيو

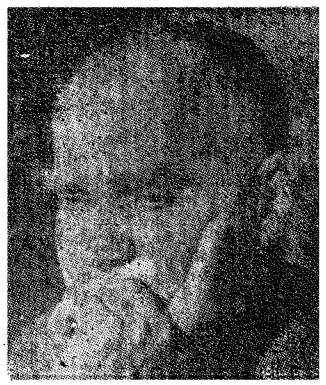

* هل يستطيع الحب ، مهما بلغ من العنف الجسدي ، ان يزيل السأم الذي يعانيه الانسان المعاصر ؟
* هذا ما تجيب عنه رواية مورافيا الاخيرة التي تثير اليوم ضجة عالمية كبيرة وتترجم الى جميع اللغات .

الثمن ٥٠٠ ق.ل

منحنيا الى أمام ، واحدى قدميه على المقعد ، وهو يمسح حذاءه برقعة من صوف .

ـ من الذي يتحدث اليوم ؟

فأشاروا الى داوروكير :

ـ انه هو .

ـ في أي موضوع ؟

فاحمر داوروكير :

ـ حياة عمال المناجم في البلد الاسود .

قال برونيه : ـ حسنا جدا . ممتاز .

وكان يعلم ان داوروكير ينتظر ذهابه ليبدأ . ولكنه لم يذهب ، فهو في جو عائلي : خمس دقائق اخرى . وانحنى « توسو » فوقه :

ـ اسمع يا برونيه : ان ابن عمي في المعسكر .

ـ ابن عمك ؟

ـ أخو زوجتي . لقد رأيت اسمه على لائحة المرضى .

ـ ماذا تقصد ؟

فقال توسو منزعجا :

ـ انه كما تعلم ، ليس في الحزب .

ـ وما هو ؟

ـ لا يهتم بالسياسة .

ـ واذن ؟

ـ أيجب ان أراه ؟ كنا نناقش الامر حين دخلت .

فلم يجب برونيه . وتقدم « بيران » خطوة الى الامام .

ـ افرض ان الفرنكيين نجحوا في اجتذابه وتضليله ، فمن الممكن ان يشي بنا .

فأشار اليه برونيه أن يصمت . ونظر اليه الجميع ، فلم يتعجل اتخاذ القرار : ان ثقتهم تشبه شفاها حارة على يديه .

ـ تحبه كثيرا ، ابن عمك ؟

ـ بما فيه الكفاية . اننا نتفاهم جيدا ، حين لا نتحدث في السياسة .

وقام بحركة صغيرة ضيقة لتعلل أهمية رغبته :

ـ انا لا أحرص كثيرا على لقائه من جديد ، لو تعلم : وانما مصدر الاهتمام انه قد تكون لديه انباء عن زوجتي .

فوضع برونيه يده على ذراعه وقال بلطف :

ـ الافضل ألا تراه .

وحول رأسه ، اشتعل اكليل العيون : لقد أصاب الهدف ، فان الرفاق لم يكونوا يتمنون ان يرى توسو ابن عمه . وأضاف باسما :

ـ طبعا اذا وقعت عليه ذات يوم ، فلن يكون ذلك كارثة .

فانحنت الرؤوس ، ووافقت :

ـ هذا ما قلناه له .

فسارع توسو يقول :

ـ ولكنني موافق ! كل ما هناك العلاقة بزوجتي .

وانتهى الحادث : وصمتوا ، وقد عاودهم الاطمئنان ، وجعل برونيه يدخن غليونه وهو سعيد . وفجأة ، أخذه البرد . ولم يكن ذلك المجد النقي الطاهر الذي أحس به صباحا ، وانما كان بردا مبتلا يلحس بطنه وفخذيه . وارتعش .

ـ الا تشعلون الموقد ؟

ـ لقد قررنا ألا نشعله بعد في الصباح .

قال برونيه : ـ فهمت .

ونهض فجأة وهو ينادي :

ـ شنايدر !

فانتصب شنايدر :

ـ ماذا ؟

ـ تعال ، ان لي معك حديثا .

وتنهد داوروكير ، وقد تحرر ، فاقترب من الطاولة ، ممسكا بورقة ، وأحاط به الافراد ، وظل الجميع وقوفا بسبب البرد . وبدأ داوروكير :

ـ اذن ، هكذا . هانذا .

وصمت منتظرا. وحيا برونيه بيده وخرج. وتبعه شنايدر وهو يصفر .

ـ ان صفيرك ناشز .

قال شنايدر : ـ كان صفيري دائما ناشزا .

والتفت برونيه فبسم له . لقد تغير شنايدر ، هو ايضا . ان له سحنة رديئة ، وهو يسعل،ولكن عينيه تكادان تكونان جذلتين. ودفع برونيه باب غرفته :

ـ ادخل .

فدخل شنايدر ، وحيا مولو باصبعين ، واقترب من الموقد مادا يده نحو النار . وكف عن الصفير ، كان يرتعش . وسأله برونيه :

ـ يبدو ان الامر ، ليس على ما يرام ؟

فهز شنايدر كتفيه :

ـ ان الدخول الى هذا المخنق ، يبعث في الرعشة .

ونظر برونيه الى مولو في غيظ ، كان علي أن أقذف بفحمه من النافذة . وبسم مولو ببراءة . وتردد برونيه ثم اكتفى بالقول :

ـ أعد له فنجان شوكولا .

فقال مولو متأسفا :

ـ لم يبق ثمة شوكولا . لقد شربتها منذ حين .

انه يكذب . وهز برونيه كتفيه :

ـ اذن ، أعد له حساء .

فرمى مولو مكعبين من اللحم المقدد في الماء الغالية . وجلس برونيه ، وكان شنايدر يرتجف . وقال برونيه :

ـ سينزلون كونيار الى المستشفى .

ـ ما به ؟

ـ زحار .

قال شنايدر : ـ يا للمسكين ! انه هالك .

فكز مولو على وجهه وقال بحيوية :

ـ يجب الا تتكلم هكذا . ربما كان ذلك حظه ، على العكس . ربما كانوا سيعيدونه الى وطنه .

فضحك شنايدر ضحكة قصيرة مستاءة :

ـ اي كلام هذا !

وسأله برونيه :

ـ أتريد أن تحل محله ؟

فالتفت اليه شنايدر :

ـ ما الذي كان يفعله تماما ؟

ـ ترجمان .

ـ أستطيع ان اقوم بذلك .

ـ حسنا .

وأشار برونيه الى سرير كونيار :

ـ ستنام هنا هذا المساء .

قال شنايدر : ـ لا .

ـ لا ؟

ـ ساقوم بالعمل ، ولكني افضل ان انام هناك .

قال برونيه : ـ لست افهم السبب . سيكون الامر مناسبا اكثر ...

ولم يجرؤ على ان يضيف « ثم انك ستنعم بالدفء » وقال شنايدر :

ـ أجدني هناك مرتاحا .

كان علي أن أتنبأ بذلك : انه يرفض ان ينام هنا ، لان المرء يكون هنا مطمئنا تقريبا ، ولا يموت من البرد ، انه دائما ذلك الهوس بقبول المهمات ورفض المنافع . « انها ليست » منافع : فهذه الغرفة هي آلة عملي . ونهض برونيه ، فالتقط حفنة من الفحم ورماها في النار بعنف . وشرب شنايدر حساءه ، وكف عن الارتجاف ، وقال ملاحظا من غير ان يرفع صوته :

ـ انك تشعل نارا جهنمية .

ـ ولم لا ؟

وقال مولو بحيوية :

ـ لو كنا نقتسم فحمنا بين الغرف ، لكان لكل منها ثلاث رزم .

فلم يجب شنايدر ، لا بد ان يصارح بشأنه مرة والى الابد : ذلك العناد في ألا يريد شيئا اكثر مما يريد الآخرون ، ان ذلك ليس حتى خضوعا مسيحيا ، وانما هو طريقة فخور في الهرب من المسؤوليات. انت لست الا فوضويا، لست الا احد هؤلاء المثقفين المحونين الذين جعلونا نخسر الحرب لانهم رفضوا ان يكونوا ضباطا . وهز برونيه كتفيه ، وأدخل يديه في جيبيه وصمت ، وكانت الحرارة قد أثارت في جوف عينيه بعض نعاس متخلف . وفجأة بهره النور : فقد أضاء المصباح الذي يتدلى من السقف . وطرف شنايدر بعينيه .

ـ الساعة السادسة .

واستولى مولو على علبة الخياطة ، في صيحة فرح ، فأخرج منها كشتبانا وخيطا وابرة ، ورفع الابرة في اتجاه معاكس للنور ونظر الى ثقبها وهو يحول عينيه . وانحنى برونيه على النواسة فأطفأها : انه يطفيء صباحه « هو » ، وان الصباح الذي يبدأ هو صباح الناس جميعا . وقام النور بالترتيب

ـ التتمة على الصفحة ١٠٠ ـ

صداقة عجيبة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٣ ـ

والتنظيف والتطهير ، وسحق النوم في جوف رأس برونيه ، وحفر تجعدات شنايدر وشفتيه الفليظتين الاليمتين ، وفي عيني شنايدر ، كان الليل كله قد التجأ . ونظر برونيه الى هاتين العينين المعتمتين ، وكان بوده ان يقول له : « لماذا تتركني وحدي ؟ » واستقام من جديد ، وقال :

ـ ستنام حيث تريد شرط ان تكون هنا كل صباح عند الساعة الخامسة .

فأومأ شنايدر برأسه ، وأخذ مولو يخيط ، ويخرج لسانه ويقوم بحركات صغيرة ، دقيقة ومتكلفة . وسأله شنايدر :

ـ ماذا تخيط ايضا ؟

قال مولو : ـ ستائر للنافذة . ان ذلك يجعل الجو أشد مرحا .

وألقى برونيه المعطف على كتفيه ، وهو يقول :

ـ ستفعل ذلك فيما بعد ، اما الآن فاني اصحبك .

فسأله مولو حزينا :

ـ الى اين ؟

ـ الى ساحة « بلاس نوار » . سأبحث عن أصحابي .

ونهض شنايدر :

ـ هل أنت بحاجة الى الترجمان ؟

قال برونيه : ـ لا .

ونظر الى ذلك الوجه الذي كان ما يزال كالحا من البرد ، فتردد ثم أضاف :

ـ ولكن احرص على البقاء هنا : فساحتاج اليك فور عودتي .

فبسم له شنايدر بسمة كبيرة ، تكاد تكون ضالعة ، وفجأة أصبحت عيناه شفافتين مرحتين . ونظر اليه برونيه وهو يهز رأسه ، ويفكر : صداقة عجيبة .

ـ هيا عجل !

ودفع مولو أمامه ، وسارا خارجا في الوحل . وان مولو :

ـ هولالا ! سوف نموت بردا .

ـ فكر في الاشخاص الذين ينتظرون في « بلاس نوار » .

ـ ليس هذا ما سوف يدفئني .

وكردح في الليل ، ولهث وان . ثم كف فجأة عن الانين ، فرفع أنفه وقال بصوت مهتاج مليء بالاسرار :

ـ مخطيء الا يجيء الى غرفتنا ، شنايدر .

فقال برونيه بصوت محايد :

ـ هو يحب رفاقه كثيرا .

وضحك مولو ضحكة صغيرة ، وقال :

ـ هذا ممكن . غير ان رفاقه لا يحبونه قط .

فقال برونيه مصدوما :

ـ عجبا ! وما يدريك ؟

ـ يقولون انه يعمل اكثر مما ينبغي .

فقال برونيه بجفاف :

ـ ليس ثمة من يعمل اكثر مما ينبغي قط .

ـ اقول لك انهم قالوا لي . يقولون انهم لا يعرفون ما الذي يفكر به ، وان مكانه ليس في غرفتهم ، باعتبار انه ليس منكم .

قال برونيه : ـ ليأتوا فيقولوا لي ذلك .

وانزعج من أجل شنايدر ، ولكنه لم يفاجأ كثيرا : كان هذا طبيعيا ، فان الافراد لا يحبون من يعمل « اكثر مما ينبغي » ، والشهداء يخيفونهم . وحث برونيه خطوته : سينتهي به الامر الى ان يكرهوه هو نفسه ، وهذا ما سوف يعقد العمل . وصمم فجأة : لا مجال للرفض ، سينام عندي هذا المساء ، وسأقول له ان هذا أمر .

ـ هو ! برونيه !

وخرج « تيبو » من كوخه جذلا ، فبسم له برونيه بود : انه يقوم جيدا بعمله ، بالرغم من انه راديكالي اشتراكي .

ـ مرحبا .

وكان تيبو قد توقف ، وعيناه الصغيرتان تبكيان في سحنته العريضة المسطحة ، والبرد يخنقه :

ـ يلعن دين ... انه لقارس ! انت ذاهب الى « بلاس نوار » ؟

ـ عندي عشرة أقابلهم .

ـ اما انا ، فخمسة عشر ، يا للجمال ! انهم لا يقدرون مشقة المجيء في مثل هذه الساعات !

واقتحما الصمت ، وغمرتهما موجة وهج فوسفوري أصفر ، فخرجت الاكواخ واحدا بعد آخر من الضباب لدى مرورهما . وكان المعسكر خاليا ، وكانا يمشيان بين صفين من السفن الشبحية . وفجأة ، اضمحلت الاكواخ: الارض الحرام ، الضباب . وكانا يدفعان هذه القشدة القذرة ، فكانت نعالهما تحك ارضا قاسية . وتوقف برونيه ليستعيد نفسه ، فاضطربت أشباح . واقترب برونيه فحيا « كوسميه » و « استروك » و « ريول » ورؤساء اكواخ آخرين . وكانوا نشيطين ، مهتمين ، غارقين في معاطفهم الانكليزية ، فكأنهم ضباط .

وسأل كوسميه ضاحكا :

ـ واذن ؟ قادمون الى سوق العبيد ؟

فصرف برونيه وجهه من غير ان يجيب . شكوى منملة ، ورفع عينيه : كان العبيد هناك، اربعمئة او خمسمئة ، مشدودين بعضهم الى بعض ، كومة ضخمة من الثياب والوحل ، وكانت الصفوف الاخيرة تضيع في الضباب . وقام بخطوة نحوهم ، وكانت سحنهم الترابية تتشابه جميعا : انه « الجنس » ، وتصفحهم واحدا بعد الآخر ، وبسم لهم في طيبة ، ولكن عيونهم الليلية كانت تطرف كما لو انهم لم يكونوا يطيقون النظر البشري بعد . وفرك برونيه يديه : سوف يجعل منهم رجالا .

وخرج صوت هائل من مكبر الصوت :

ـ اعطوا حمالاتكم وآلات الحلاقة والمصابيح الكهربائية ، أعطوا حمالاتكم ...

واقترب ماير ، الرجل الثقة ، وكان ممسكا لا يحبه برونيه قط .

ـ هيا ! ليأخذ كل حسابه .

وألقى كوسميه يده في الهواء ، وكان مواجها للجمع ، وأدار عينين مخيفتين :

ـ تحت قيادتي ! الخمسة عشر الاول في عهدتي .

وانحنى تيبو على مسمع برونيه :

ـ أي قفا هو !

وتدحرجت على كوسميه موجة من التراب والشعر والقماش ، فتقهقر وهو يصيح بصوت مريع :

ـ لقد قلت خمسة عشر !

فهدرت الموجة وتوقفت .

ـ في الصفوف ثلاثة ثلاثة . الى الامام ، سر .

واستدار على عقبيه ومضى من غير ان يرميهم بنظرة ، وتعثر خمسة عشر رجلا بقدميه . ونفد صبر ماير .

ـ هيا ، انتم الآخرون ! اننا نتجلد ، فحركوا مؤخراتكم !

وظل استروك طويلا وهو يختار ، وكان يمر بطيئا امام الاسرى فيتفحصهم ويأخذ أصلبهم من ياقاتهم، فيجذبهم خارج الصفوف ويرسلهم خلفه .

ـ برونيه !

ونظر برونيه حوله فلم ير أحدا .

ـ برونيه ! برونيه !

وكان استروك قد قبض على شاب طويل صلب ، مخضر من البرد . وتخلص الشاب بضربة فجائية وبسم لبرونيه .

ـ هو ! برونيه ، الا تتذكرني ؟

قال برونيه : ـ موريس ! أهذا صحيح ؟

ووضع يده على ذراع استروك :

ـ انه رفيق .

فقال استروك بلياقة :

ـ خذه ، فهو لك .

وهز برونيه موريس مقهقها :

ـ مرحبا يا صاحبي الصغير ، ان هذا طريف حقا ! انظر الي قليلا : لقد كبرت وترعرعت !

فقال موريس بلهجة حادة :

ـ مرحبا . ولكن قل لي : ان شاليه موجود هنا أيضا .

فردد برونيه مأخوذا :

ـ شاليه !

ـ نعم .

ـ قل له ان يأتي .

وكان البرد يعض ، وكان برونيه يرتجف ويبحث بعينيه عن طيف شاليه الدقيق .

ـ الثاني الى اليسار ، في الصف الثاني.

وحرك برونيه يده في فرح . واقترب شاليه ، ممتقعا ، محمر الانف . قال برونيه :

ـ مرحبا .

فتمتم شاليه : ـ مرحبا ، ايها الرفيق .

وتبادلا بسمة لا تخلو من ارتباك ، وكانت اسنان شاليه تصطك . فقال برونيه :

ـ انك مجلد .

ورفع شاليه كتفيه ، وكان عيناه قاسيتين كئيبتين .

ـ ليس اكثر من الآخرين .

بلى ، اكثر من الآخرين . ان شاليه هو دائما اكثر بردا او اكثر حرا من الآخرين . فهو غير منسجم مع جسمه . وقال برونيه :

ـ انني آخذك . سوف تتدفأ وانت تمشي.

فلم يجب شاليه ، واستدار برونيه فصاح:

ـ ثمانية رجال معي ، الذين يريدون .

فانفصل ثمانية رجال عن الصفوف . ونظر برونيه بتنبه الى هذه الوجوه الثمانية غير القابلة للتمييز : لمْ يكن الالم عندهم تعبيرا ، وانما كان خلفية صباغ . اني افضل ذلك .

ـ هل أكلتم هذا الصباح ؟

ـ حصى . لم ناكل شيئا منذ أمس .

قال برونيه : ـ اذهب يا مولو فاطلب الى « سرفيان » ان يعد لنا افطارا خفيفا ، عجل .

فمضى مولو وهو يعدو . وكان موريس وبرونيه يسيران جنبا الى جنب ، وتردد شاليه لحظة ثم ظل خلفهما ، والتفت برونيه فرآه يتبعهما وسط الاخرين ، وكانت ساقاه القصيرتان السميكتان تغزلان تحت قسمه الاعلى الطويل . وقال برونيه مؤكدا :

ـ انني مسرور ان يكون شاليه هنا .

وابتسم موريس في اقتناع :

ـ لست على خطأ : انه ذو شأن . ولن تجد اثنين مثله في « الحزب »

وأحنى برونيه رأسه من غير ان يجيب : ان شاليه ، بكل تأكيد ، ذو شأن .

ـ قفوا !

واقترب المان: قسباط من القيادة ، هادئون. وأحصوا الاسرى ، وابتسم لبرونيه ضابط ذو شاربين رماديين ، وخدين يشبهان خدي فتاة.

ـ « غوتن مورغن » .

فقال برونيه : ـ « غوتن مورغن » .

ودفعه موريس بمرفقه :

ـ هل يعرف الفرنسية ؟

ـ لا .

فابتسم موريس بود للضابط وقال :

ـ مرحبا ، ايها الفرج القديم !

فابتسم الضابط من جديد ، وضحك موريس :

ـ هكذا يجب ان ندعوهم !

فلم يضحك برونيه . وانطلقوا ، وكان النهار يبزغ . وكان على النوافذ وعتبات الابواب اشخاص ينظرون اليهم مارين وهم يتثاءبون . وكان برونيه يعرفهم جميعا ، ولكنهم كانوا ذلك الصباح يبدون له غرباء بعيدين . وحياهم بيده في نوع من الضيق ، وابتسم الرجال ، مدهوشين بعض الشيء : لم يكن تبادل التحية واردا في المعسكر . وهذا هو شابولو يطل من احدى النوافذ :

ـ مرحبا ، ايها الجدد !

فأجابه موريس بحيوية :

ـ خراء ، ايها القدامى !

والتفت نحو برونيه :

ـ طق !

وكان يشبه مرشحا للجندية باريسيا يدخل الى ثكنة في الريف دخول المغرمين بالضجيج.

ونظر اليه برونيه بتنبه : لقد قسا وهزل ، وسقط بعض شعره ، واكتسب بعض الثقة والاطمئنان . وقال برونيه :

ـ رأيتك لآخر مرة في شارع رويال .

فقال موريس : ـ نعم . عام ٣٨ . كنا آنذاك قلقين أشد القلق . وانا لا أتمنى ان نعود الى ذلك العهد .

وأشار الى الاكواخ ، قائلا لبرونيه :

ـ أفي داخل هذا تنامون ؟

ـ واين تريد ان ننام ؟

فربث موريس على بطنه :

ـ ليس هو مكانا عظيما .

فسأل برونيه منزعجا :

ـ ماذا ؟ أكنتم في مكان أفضل ، هناك ؟

ـ في سواسون ؟ كنا نعيش في ثكنة جديدة . بل كان هناك من ينامون في المدينة.

فصفر برونيه في اعجاب مصطنع ، وابتسم موريس لذكرياته ، وكان يبدو منغلقا لا ينفذ اليه . وسأله برونيه :

ـ كيف حال زوجتك ؟

ـ لا بأس . لقد جاءت تلقاني في سواسون. كان يسمح لنا بكل الزيارات .

فأخفض برونيه صوته :

ـ هل قمت باتصالات ؟

ـ أنا ، لا ، بل شاليه (واضاف موريس باعتزاز) اما انا ، فقد هرب الي زيزيت عددين من « الومانيتيه » .

فقال برونيه بحيوية :

ـ آه ! لقد عادت الى الصدور ؟

ـ منذ شهر تموز .

وردد برونيه :

ـ منذ شهر تموز .

وكان هذا يكاد يؤلمه :

ـ كل اسبوع ؟

ـ لا ، ليس كل اسبوع: وانما حين تستطيع. (وأضاف وهو يضحك) ولكنك ستراها ذات صباح وهي تظهر في وضح النهار ، وسيكون بوسعك ان تشتريها من الاكشاك . غير أن هناك مع ذلك من يظنون اننا قد متنا ، ويظهر ذلك على وجوههم بصورة عجيبة !

ـ في وضح النهار ؟ مع الالمان في باريس؟

ـ ولم لا ؟

وعدل برونيه عن النقاش تلك اللحظة : ان هناك عملا ينبغي ان يعمل ، حتى تجاه أفضل الرفاق ، فلقد مكثوا في باريس أطول مما ينبغي ، وهذا مفسد . وفكر فجأة : ولكن ما كان شاليه يروي لهم اذن ؟ وسأل :

ـ هل لديك عدد من « الاوما » ؟

ـ لا ، اسأل شاليه ، فربما كان لديه منها ، كنا نتخلص منها حتى لا تحدث لنا مشاكل .

ـ ألم تكونوا تتناقلونها ؟

ـ لا .

ـ لماذا ؟

ـ ان معظم الافراد لم يكونوا من رأينا .

ـ ان الافراد يقنعون . ألم يكن شاليه يعمل على اقناعهم ؟

فقال موريس بصوت جاف :

ـ لا ادري ما الذي كان يفعله شاليه .

ونظر اليه برونيه ، فبسم موريس .

ـ ما أستطيع ان اقوله لك ، هو انها كانت دائما جريدتنا « الاوما » القديمة .

وسارا في صمت . وكان موريس يتسلى ، فكانت عيناه تركضان في كل مكان ، وتلاحظان كل شيء ، وكانت بسمة تعال تقلص شفته ، ان للمعسكر شاهدا . وفجأة توقف : كان ثمة زهاء عشرين رجلا نصف عراة ، منحنين فوق جرن حجري ، يغتسلون في سرعة تحت سقيفة . وهز موريس رأسه ، فعاد برونيه ادراجه وأخذه من ذراعه :

ـ ليس لدينا وقت نضيعه .

فلم يجب موريس . ونظر برونيه الى الافراد الذين يغتسلون ، وفجأة « رآهم » : رأى اكتافهم المقوسة ، وصدورهم الهزيلة ، وبطونهم المنتفخة ، وحركاتهم التي تشبه حركات الكهول . والتفت نحو موريس في غضب ، كان يخيل اليه ان عمله بالذات يهاجم . ان موريس أشد بردا منهم ، وان يديه ترتجفان ، ولكنه ذو هيئة مزهوة وقاسية كما لو انه كان يحمل علما من أعلام اول ايار ، وكان يقف منتصبا . وانتصب برونيه آليا ، ففرز أصابعه في عضلات موريس واقتاده : من اليسير ان يكون المرء ماكرا حين يكون قد قضى ستة اشهر في فرنسا ، وسنرى بعد ستة أشهر اذا كنت تساوي اكثر منهم . وقال :

ـ تبدو لي ذا مظهر شامخ ، يا رفيقي العزيز .

فقال موريس : ـ الى أبعد حد !

ـ المهم ان يبقى ذلك !

ـ ولماذا تراه لا يبقى ؟

فقال برونيه بهدوء : ـ سوف ترى . ان المكوث في المانيا ليس امرا ممتعا كل يوم .

قال موريس بلهجة شك :

ـ ولكننا لن نبقى فيها .

فرفع برونيه حاجبيه حزينا . وتمتم :

ـ هل تنوي ان تهرب ؟

فنظر اليه موريس في دهشة :

ـ انا ؟ لماذا ، ما داموا سيطلقون سراحنا ؟

وارتعش برونيه ، فتابع موريس بلهجة مهتاجة :

ـ سوف ترى ، ايها الرفيق ! سترى الاب الصغير ستالين ، ذات يوم ، كيف سيحرجهم سيقول لهم : انتهت المهزلة يا جماعة. فاعقدوا الصلح مع فرنسا ، واعقدوا الصلح مع انكلترا ، واعيدوا العمال الفرنسيين الى بيوتهم .

فساله برونيه : ـ وسيعقد الالمان الصلح ؟

ـ طبعا !

ـ هكذا ، بكل لطف ؟ لانه انما طلب اليهم ذلك ؟

قال موريس : ـ آه ! انك لا تستطيع ان تدرك ! ان الاتحاد السوفياتي هو الذي يقود حفلة الرقص الآن ، والالمان يفعلون كل ما يريده .

قال برونيه : ـ عجبا ! لم أكن أعرف ذلك !

فقال موريس في ملاطفة :

ـ بالضرورة . ذلك لانك بقيت ستة أشهر بلا اتصالات . في البدء ، لم يكن الامر كذلك ، اما الآن فانه تمسك بهم .

ـ ولماذا ؟

ـ عجبا ! لانه يقدم لهم العتاد .

فقفز برونيه في الهواء :

ـ اي عتاد ؟

ـ قليل من كل شيء . سيقول لك شاليه ذلك خيرا مني . المهم انه اذا قطع ساعدته ، فلن يبقى امام الالمان الا ان يركعوا .

ـ وكيف علمت هذا كله ؟

قال موريس : ـ كان هذا منشورا في « الاوما » .

وكان برونيه قد ملك أعصابه ، فبسم لموريس وفرك يديه قائلا :

ـ ليكن . هذا أفضل ! هذا أفضل . ان هذه انباء طيبة .

ووصلا ، وكانت الشمس تنهض ، والنهار يبدأ ، مرعا رخيا ، منتفخا بالماء ، وفي هذا النهار الذي يشبه كل نهار آخر ، كان شيء ما يحدث . ولم يستشعر برونيه خوفا ولا غضبا، بل كان ينظر الى موريس باهتمام مثلوج ، ثم التفت الى الآخرين :

ـ ادخلوا !

فدخلوا ، ونادى برونيه لامبير :

ـ اجلسهم . وانت يا مولو احمل طعام الافطار . سوف أهتم بهم فيما بعد .

واوما الى موريس والى شاليه :

ـ اما انتما ، فاتبعاني .

فسارا خلفه ، وفي نهاية الممر توقف ليقول لهما قبل ان يفتح الباب :

ـ الجميع هنا منا وفينا .

ودخل ، وكان الافراد يرتدون معاطفهم : كانوا ذاهبين الى العمل .

ـ اذن ؟ كيف كانت محاضرة « البلد الاسود » ؟

فقال الافراد : ـ كانت جيدة ، كانت هامة.

وقال « بينان » في حماسة :

ـ كانت مثقفة .

وكان برونيه منفعلا ، فالتفت نحو شاليه :

ـ انهم يلقون الاحاديث فيما بينهم صباحا: انهم يتقاسمون كل ما يعرفونه .

فلم يجب شاليه بشيء ، كانت اسنانه تصطك . واضاف برونيه كأنما يحدث نفسه :

ـ ينبغي ان نتمكن من اعطائهم كتبا .

وأشار الى شاليه وموريس :

ـ هذان رفيقان جديدان . انهما يصلان من فرنسا .

والتفتت جميع الرؤوس نحوهما كابتسامات حارة . ونظر برونيه الى جماعته في رضى : ان موريس يستطيع ان ينسجم مع هؤلاء . وبسم لهم بدوره ، وداخله شعور خفي انه كان يودعهم ، ووضع يده على كتف شاليه ودفعه الى أمام وقال بصوت قوي مزهو :

ـ ان هذا ، كما لو اني كنت أنا .

فانفلتت الانظار عنه وحطت على شاليه . ونظر برونيه لحظة هذه العيون التي كفت عن النظر اليه ، وكان يحسب ان لديه شيئا آخر يضيفه ، ولكنه نسي ما هو . وأدار عقبيه ورمى لشاليه من فوق كتفه .

ـ تعال الي بعد طعام الفطور ، فاننا سنتحدث .

وخرج وهو يفكر : ان شيئا ما يحدث ، وحث خطوته ، وكان يتعجل لقاء شنايدر بكل نقائصه ، ان شنايدر هو الاسرة . ودفع الباب : وكان شنايدر هناك ، منحنيا فوق الموقد . واستشعر برونيه العزاء .

ـ هأنذا .

ودخل فارتعش ، وبدأت الحرارة تداعبه ، ثم صعدت فجأة الى وجهه في موجة من دم . ونزع معطفه فرماه على سريره ، وكان يحس الخجل ان يشعر بالحر . وسأله شنايدر :

ـ واذن ؟

فجلس برونيه ، وطقطقت الكرسي. وارسل صفعة عنيفة الى ظهر شنايدر :

ـ ايها الازعر القديم ! ايها الاشتراكي الخائن الملعون !

وضحك ، فالتفت شنايدر ونظر اليه يضحك :

ـ ما الذي حدث ؟ ضربة قاسية ؟

فكف برونيه عن الضحك ، وقال :

ـ لا ، بل ان كل شيء يجري على ما يرام.

ومد ساقيه نحو النار ، وتنفس بقوة ، وأشعل غليونه :

ـ سيكون لذيذا .

ـ ماذا ؟

ـ غليوني . لقد اشتريته امس من المستودع : سيكون لذيذا .

ان الغليون لذيذ ، ووجه شنايدر اللذيذ ، وقد احمر بالنار ، تروق رؤيته . ان المرء يحس انه في بيته ، بمنجى .

ـ لقد وجدت رفيقين : فتى صغيرا من لدن « لوفليف » ثم شاليه .

فرفع شنايدر رأسه ، ونظر الى برونيه بعينين ميتتين وردد بشرود :

ـ شاليه ... شاليه ...

قال برونيه : ـ نعم ، ان اسمه لا يوحي لك بشيء ، فانه لم يكن معروفا خارج الحزب ، ولكنه شخص ذو وزن . كان نائبا عام ٣٩ ، وقد وضعوه في الزنزانة ، ومن هناك ارسلوه توا الى الخط الاول .

فلم يقل شنايدر شيئا ، واستطرد برونيه :

ـ انني مسرورا بأن يكون هنا . مسرور جدا . صحيح أنه جميل جدا ان يتخذ المرء قراره وحده ، ولكن ... خذ مثلا ، تجاه « فرنسا الحرة » ، اي موقف يجب ان نتخذ ؟ لقد قلت لك ان ذلك كان يشغل فكري . اما هو ، فلا بد انه يعرف : لقد كانت له اتصالات .

وكف عن الكلام . وكان شنايدر قرمزي اللون ، مفمض العينين نصف اغماضة ، كأنه كان نائما . وارسل له برونيه ركلة على دبلة ساقه :

ـ هل تسمعني ؟

قال شنايدر : ـ نعم .

فقال برونيه : ـ ان لشاليه تجربة غنية ، لا تشبه قط في نوعها تجربتي : انه ابن راع ، انه مثقف . صحيح انه لم يعاشر القاعدة كثيرا ، فاحتفظ بجانب طهري ، ولكنه ذو فكر بارد . وهو يعرف ما يريد .

ونفض غليونه في الموقد وانتهى الى القول:

ـ سوف يقدم لنا مساعدة ثمينة جدا .

وتوقف ، وأرهف شنايدر اذنه ، كما لو انه كان يسمع ضجة الخارج . وساله برونيه نافد الصبر :

ـ ولكن ما بالك ؟

فابتسم شنايدر :

ـ اذا اردت ان تعرف ، فاني ناعس . فلقد منعني البرد ، في الليلة الماضية ، من أن أنام.

فقال برونيه بلهجة سلطان :

ـ ابتداء من هذا المساء ، ستنام هنا . ان هذا أمر .

ففتح شنايدر فمه ، وكان ثمة من يسير في الرواق ، ثم صمت . وكانت تطفو على شفتيه بسمة غريبة . وسأل برونيه :

ـ هل سمعت ؟

فقال شنايدر : ـ سنرى هذا المساء . فاذا

طلبت مني ذلك مرة اخرى ، فسوف افعله بسرور .

واقتربت الخطى ، وطرق الباب . وظل صامتا ، وبدا انه ينتظر :

ـ ادخل .

وكان شاليه ، وقد توقف على العتبة ، وهو ينظر اليها . فقال برونيه :

ـ انك تجعلنا نتجلد . أغلق الباب .

وخطا شاليه خطوة الى الامام ، وتوقف وهو ينظر الى شنايدر . وأغلق الباب خلفه بركلة قدم ، من غير ان يكف عن النظر اليه . وقال برونيه :

ـ انه شنايدر ، ترجماني . (والتفت الى شنايدر) هذا شاليه .

وتبادل شنايدر وشاليه النظر . وكان شنايدر ما يزال محمر الوجه . ونهض باسترخاء وبطء ، وقال بلهجة متبرمة :

ـ انني ذاهب .

فقال برونيه : ـ بل ابق . سوف تأخذ حرا وبردا .

فلم يجب شنايدر ، وقال شاليه بصوته الواضح :

ـ اود ان أتحدث اليك على حدة .

فقطب برونيه حاجبيه ، ثم بسم بسمة طيبة ومراعاة ، ورفع يده وتركها تسقط ثقيلة على كتف شنايدر . وظل وجه شنايدر رخوا بلا تعبير . وأوضح برونيه :

ـ انه رجل ثقتي . وكل ما فعلت هنا ، فعلته معه .

وظل شاليه جامدا كل الجمود ، وكف عن ان ينظر الى أحد ، وبدت عليه اللامبالاة .

وانسل شنايدر من تحت يد برونيه، واتجه الى الباب مجرجرا قدميه . وانغلق الباب وراءه . وظل برونيه لحظة ينظر الى مقبض الباب ، ثم التفت الى شاليه :

ـ لقد جرحته .

فلم يجب شاليه . واغتاظ برونيه ، وقال في خشونة :

ـ اسمع قليلا يا شاليه ...

ورفع شاليه يده اليمنى فيما هو محتفظ بمرفقه ملتصقا بجسمه ، وانقطع برونيه ، فقال شاليه :

ـ انه فيكاريوس .

فنظر اليه برونيه من غير ان يفهم ، وتكلم شاليه . كان جسمه مقرورا ، ولكن صوته الخطابي الكبير لم يكن مقرورا :

ـ ان هذا الشخص الذي خرج ، هو فيكاريوس .

فسأل برونيه : ـ « أي » فيكاريوس ؟

ولكنه كان قد حدس بالجواب . وأجاب شاليه من غير ان يرفع صوته :

ـ الـ « فيكاريوس » الذي طرد من الحزب عام ٣٩ .

فقال شنايدر بصوت ضعيف :

ـ ان هذا الشخص يدعى شنايدر .

وبالحركة الضيقة الآلية نفسها ، رفع شاليه ساعده ودفع نحو برونيه قبضته المفتوحة :

ـ لا تتعب نفسك . لقد عرفني . وهو يعلم اني عرفته .

وردد برونيه :

ـ فيكاريوس !

وكان الاسم يهتز في رأسه ، فيفكر : انه اسم يذكرني بشيء . وقال بمشقة :

ـ لم أكن أعرف انه فيكاريوس .

قال شاليه : ـ طبعا .

وحسب برونيه انه يلحظ في هذا الصوت ظلا من التنازل ، فرفع رأسه بحيوية . ولكن عيني شاليه كانتا كابيتين ، وكان يشد ذراعيه على جنبيه ، ويغرق عنقه في كتفيه : فكأنه يجمع أعضاءه ليحس مراقبتها . وسأل برونيه بهدوء .

ـ فيكاريوس ، ترى ألم يكن صحفيا ؟

قال شاليه : ـ انتظر .

واجتاز الحجرة بسرعة وراح يلتصق بالموقد، وهيئة الذل بادية عليه .

ـ انني لا انجح في تدفئة نفسي .

وانتظر برونيه : انه لا يشعر بالبرد ، بل يحس نفسه ثقيلا وقويا ، سيد نفسه وجسمه. انه ينتظر ، ويملك الوقت كله للانتظار ، وابتسم بصبر لشاليه ، فهو ليس بعد الا صبرا لا حد له . وسحب شاليه كرسيا فاقتعده ، وسرعان ما استرد صوته الشبيه بضربات فأس .

ـ في الشتاء الماضي ، ألم تتلق تحذير « الحزب » ؟

ـ ضد فيكاريوس ؟

ـ نعم .

فقال برونيه بهدوء :

ـ أظن ان بلى . ولكني كنت جنديا ، ولما لم يكن في الفرقة من يدعى فيكاريوس ...

قال شاليه : ـ كان رئيس تحرير جريدة وهرانية . ولم تكن الجريدة تنتمي الى الحزب تماما ، ولكنها كانت تؤيده . اما فيكاريوس ، فقد كان مسجلا . وكذلك زوجته . وقد ترك في ايلول ٣٩ .

ـ بسبب الحلف ؟

ـ طبعا . لقد نشر كتاب استقالته في جريدته ، وبعد ذلك نشر ثلاث افتتاحيات ضدنا ، ثم تطوع . او انه تجند ، لم أعد أذكر .

قال برونيه : ـ أهذا صحيح ؟

واحسه مهتاجا ، كما لو انه ابلغ موت احد . وكان شاليه يتكلم ، فتنفلق حياة المرحوم شنايدر . فان يموت المرء وان يترك الحزب ، امر متشابه .

ـ أهذا صحيح ، وكان يفكر : ان شيئا ما يحدث وقالت شاليه :

ومنذ ذلك الحين ، عرفنا انه كان يقدم تقارير لحكومة الجيه . وكانت بين ايدي الرفاق الجزائريين ادلة .

وترك برونيه نفسه يتداعى على كرسي ، ويضحك من كل قلبه . وكان شاليه ينظر اليه . واوضح برونيه قائلا :

ـ انما انا اضحك لاني علمت هذا الصباح بالذات ان رفاقي الصغار لم يكونوا يطيقونه.

فوافق شاليه برأسه برصانة :

ـ ان القاعدة لا تخطيء قط .

وفكر برونيه : وماذا تعرف عن القاعدة ؟ وقال :

ـ نعم ، انهم يملكون حاسة شم قوية لمثل هذه الامور .

وكان شاليه يتدفأ . وفكر برونيه : لقد كان شنايدر ماكرا . وكان شيء ما يتأكله . فأغمض عينيه نصف اغماضة ، وضغط على اسنانه ، ونظر الى وجه شاليه العاق عبر جفونه وهو يفكر : ان رفيقي هو هذا . واحس بنفسه هادئا كل الهدوء : ان هذا ليس حقا مزعجا ، بل هو لذيذ . فكلما اكتشف المرء اسبابا وجيهة ليفكر بان الناس قذرون ، وان الامر لا يستحق الحياة ، فانه يبدأ بالشعور بالرضى . ونظر الى شاليه : سوف نعيش الان معا ، في هذا المعسكر ، طوال اشهر وسنوات ، يوما بعد يوم .

هذا لذيذ . وتفحصه شاليه بفضول وسأل :

ـ ماذا تنوي ان تفعل ؟

فعض برونيه على شفتيه ، حائرا : « هل هناك ما يفعل » ؟ وفي بضع لحظات احس نفسه رخوا وكسولا،ثم اكتسحه الغضب فجأة ،فتمتم:

ـ وتسألني ذلك ؟؟ وتسألني ذلك ؟؟

وتمالك نفسه واضاف بجفاف :

ـ سوف اقذفه خارجا ، هذا ما سوف افعله . وفي اقل من لحظتين !

وبدت على شاليه البرودة والتململ ، فتمتم:

ـ هذا خطر .

ـ ان ما هو خطر الاحتفاظ به في الكوخ.

ـ هل سبق ان علم انك عضو في الحزب ؟

فصرف برونيه رأسه ، وسقط غضبه :

ـ لقد عرفني منذ اليوم الاول

ـ والرفاق ؟ أيعرف ايضا انهم اعضاء ؟

ـ طبعا .

قال شاليه : ـ فليكن

وشرح برونيه بحيوية :

ـ كان هذا ضروريا .. فلقد ساعدني كثيرا في عملي .

فسأل شاليه بلامبالاة :

واي نوع من العمل كنت تقوم به ؟

فقطب برونيه حاجبيه :

ـ سنتحدث في هذا فيما بعد .

قال شاليه : ـ مهما يكن ، فما دام يعرف هذا كله ، فيجب مواجهة الاسوأ : فماذا

قذفت به خارجا كالفائط ، فسوف يشـــي بنـــا .

فهز برونيه كتفيه :

ـ انت على ضلال . انه ليس من هذا النوع على الاطلاق .

قال شاليه في نفاد صبر :

ولكني اخبرتك انه كان يقدم تقارير الـى الحـاكم .

قال برونيه : نعم . نعم بكل تاكيد . ولكني اعرفه معرفة عميقة : انه ليس من هذا النوع.

فقال شاليه على مهل كانما يكلم نفسه .

ـ كنت اتساءل عمـا اذا لم يكن من الاحكم ان تحتفظ به هنا .. سيقال له انه غيـر وارد ان يكون ثمة تراجع عن ادانته ، واننـا لسنا مؤهلين لذلك ، ولكـن نظرا للظـــروف الحالية ...

فضحك برونيه ضحكة قصيرة :

ـ هو ليس بالمجنون . انه لم يناضل عشرة اعوام ليجهل ان الحزب لا يسامح ابدا : فاذا احتفظنا به ، فسيفكر بانه يخيفنا .

قال شاليه : ليس بالضرورة ، فبالامكان..

ومن جديد ، كفى ! فاني لن اتنسم خمس دقائق اخرى الهواء نفسه الذي يتنسمه هذا القذر . لقد خدعني ، ولكنه لـن يخدعني بعد .

قال شاليه : ـ كما تريد .

واضاف برونيه في مشقة :

ـ سوف اعيده الى « تيبو » وهـو رئيس كوخ . شخص موثوق بمسك لسانه . وصمتا وهدأ برونيه رويدا رويدا ، ولم يفهم جيـدا ما الذي قد حدث له .كانت كلمات متقطعـة تدور في رأسه ، وحين كان يفكر في شنايدر، كانت تأخذه رغبة في الضرب . كان كـــل ما هو مريب يثير نفوره . وقال شاليه :

ـ اذن ، ناد فيكاريوس لنطلعه عـــلى قراراتنا . وستقول له ان ينصرف بالحسنى، وانه سيكون ثمة تحطيم اذا رؤي يرود حول مركز القيادة الالمانية .

وساد صمت قصير ، ثم ردد شاليه :

ـ ناده ! فانا واثق انه غير بعيد .

فلم يتحرك برونيه . وقطب شاليه حاجبيه:

ـ ماذا تنتظر ؟

ـ انتظر ان تذهب .

فنهض شاليه على مضض . وفكر برونيه : طبعا ، انما انت متأسف على الموقد . ووضع شاليه يده على مقبض الباب ، وقال برونيـه فجأة :

ـ لا تقل شيئا للرفاق .

فالتفت شاليه مندهشا :

ـ لماذا ؟

ـ لانه ، كان .. كان متعلقا بهم . ولـــن نربح شيئا اذ ندفع انسانا الى اخـر حد ...

فتردد شاليه : ـ ولكن التحذير قد وقع .

فقال برونيه من غير أن يرفع صوته :

ـ اطلب منك الا تقول شيئا للرفاق.

فهز شاليه كتفيه :

ـ مفهوم .

وخرج ، فخرج برونيه خلفه ، فوقف على عتبة الكوخ وراح يبحث بنظره عن شنايـدر ولمحه جامدا ، مستندا الى حاجز الكوخ ٢٨ وتبادلا النظر ، واستدار برونيه نصفاستدارة وعاد يدخل كوخه ، تاركا الباب مفتـــوحا . وسرعان ما ظهر شنايدر ، فنفض نعليه على الارض ليسقط عنهما الثلج ، ودخل فاغلـق الباب . وكان برونيه جالسا ، صارفا عينيه. وسمع كرسيا تطقطق . لقد جلس شنايدر . ورفع برونيه عينيه : كان شنايدر قد جلس على مقربة منه ، شانه كل يوم، بوجهه الطيب المستدير ، لم يحدث شيء قط .

وقال شنايدر بهدوء : ـ لقد رايت هذا الشخص في وهران . فقال برونيه ملاحظا : ولكنك لم تقل لي من قبل انك من وهران .

ـ اجل ، لم اقل لك ذلك

ـ انت فيكاريوس ؟

ـ نعم .

ـ كان فيكاريوس جالسا قرب برونيـه ، وكان يتحدث ، وكان برونيه لا يرى الا شنايدر وقال برونيه :

ـ غير اني التقيت بك في مكان ما . فـي العهد الاول ، في بكارا ، وكنت اقول لنفسي انني اعرف هذا الوجه .

قال شنايدر : ـ لقد التقينا عام ٣٢ في « مؤتمر الحزب » وقد عرفتك انـا علـى الفور .

ـ في « المؤتمر » ، هذا صحيح .

وكان يسأل هذه الملامح الثقيلة ، وهذا الانف المتهدل الضخم ، وكان يحاول ان يجد ، فيمـا وراء فيكاريوس ، شنايدر حزيـران ٤٠ ، الغريب الغامض ، الاليف المبهم الذي كـان الحقد عليه ممكنا بعد . ولكن شنايدر اصبح شنايدر « تماما » . وخفض برونيه عينيه ، وتكلم وهو ينظر الى الارض :

ـ سوف اسجلك في كوخ تيبو . وبوسـعك ان تنقل اليه امتعتك بعد العشاء .

ـ حسنا .

ـ لن نقول شيئا للرفاق .

فقال شنايدر : ـ حسنا ، شكرا

ونهض ليذهب ، وخطا خطوة نحو البـاب، فمد برونيه يده ، وانفتح فمه بالرغم منه،فخرج منه صوت هائل ، صوت ليس له :

ـ لماذا كذبت علي ؟

فنظر اليه شنايدر في دهشة ، واستقـام برونيه ، فاذا هو اشد دهشة من شـنايدر ، وصحح في قسوة :

ـ لماذا كذبت « علينا » ؟

قال شنايدر : ـ لانني اعرفك

انه مغرور ، كشاليه ، ولكنه ليس هو البرد نفسه . وعاد ادراجه ، فمد يديه الضخمتين الطيبتين نحو الموقد . ونظر برونيه في صمت الى يدي فيكاريوس الضخمتين الطيبتـين . وبعد لحظة ، سأل برونيه :

ـ ما كانت حاجتك الى ان تلتصق بنـــا، ما دمت قد تركت الحزب

فقـال شنايدر : ـ لقد سئمت مـن ان اكون وحدي .

فنظر اليه برونيه بتنبه :

ـ الم يكن ثمة سبب اخر ؟

ـ ليس هناك اسباب اخرى .

ومشى بضع خطوات في الغرفة ، بهيئة مستنيمة ، واضاف ، كانما يحدث نفســـه

ـ بالطبع ، كنت افكر بان ذلك لا يمكن ان يدوم .

واستيقظ فجاة ، فرفع رأسه وبسم لبرونيه وقـال :

ـ يسرني ان نفترق بشكل ملائم .

فلم يجب برونيه . وانتظر شنايدر وهـو يبتسم ، ثم امحت بسمته وقال بلا انفعال :

ـ وداعا يا برونيه . لقد عملنا معا اعمـالا طيبة .

واستدار على عقبيه ومضى ، لن نلتقـي بعد ابدا ، وصعد الدم الى وجه برونيـه ، وادار الغضب اسطوانات بيضاء في عينيه . وقالت بصوت منخفض وسريع :

ـ هذا كله خلط . فقد كنت تتجسس علينـا .

وانما قذف عبارته في ظهر فيكاريوس ، وشنايدر هو الذي التفت ونظر اليه . وكـان برونيه يتحرك على كرسيه ، كان يبحث عن غضبه فلا يجده مرة اخرى . وقال شـنايدر على مهل :

ـ اهذا حقا ضروري ؟

ـ فلم يجب برونيه ، واضاف شنايدر :

ـ سامحي لدى تيبو ، وسأحاول ان اتدبر امري ، وانت تعرف جيدا انني لن احـاول ان اوذيكم .

لقد صدر ثمة تحذير . ونظر برونيه الى شنايدر في عينيه ، وقال بهدوء :

ـ كنت مشتري من قبل الحاكم العام .

ونظر اليه شنايدر مبهوتا ، ضاحكا تقريبا :

ـ من قال لك هذا ؟ شاليه ؟

قال برونيه : ـ لقد صدر بشانك تحذير قراته انـا نفسي في الشتاء المنصرم .

ـ لم اكـن اعرف ذلك .

وساد صمت طويل . وكان فيكاريـــوس ممتقعا . انه الان فيكاريوس بما لا سبيـــل معه الى الاصلاح . ووجد برونيه غضبه ثانية: كان ينظر في غضب ، على وجه فيكاريوس ، الى هذا الالم الذي يسيل كانه دم ويوحـي بالرغبة في جعله يسيل اكثر فاكثر .

وسأل فيكاروس : ـ وما الذي كان يرويه ، تحذيرك هذا ؟

ـ انك كنت مخبرا . وكان الرفاق في الجيه يملكون الادلة .

وارتمى فيكاريوس الى امام ، فظن برونيه انه يهم بان يضرب فاذا هو ينهض ، مكور القبضتين . ولكن فيكاريوس لم يضرب . انه تجاه برونيه تماما ، والعين في العين . ولم يكن لعيني فيكاريوس نظر ، بل كانتا فمين فاغرين يناديان . واحس برونيه بالدوار ، فرمى رأسه الى خلف ، لان انفاس فيكاريوس كانت كريهة .

ـ انك يا برونيه لا تصدق ذلك !

ولم يعرف برونيه اذا كانت شفتا فيكاريوس ام عيناه هما اللتان تكلمتا . واراد ان يسد دفعة واحدة جميع هذه الافواه التي كانت تستفيث ، فقال :

ـ انني اصدق كل ما يقوله « الحزب ».

فانتصب فيكاريوس من جديد . كانت عيناه سوداوين قاسيتين في هذا الوجه الطبشوري وكانتا الان « تنظران » . وتراجع برونيه خطوة ولكنه جهد في ان يردد « تحت هاتين العينين » :

ـ انني اصدق كل ما يقوله « الحزب » .

ونظر اليه فيكاريوس طويلا ، ثم انفتل متجها الى الباب . يجب المضي الى النهاية : فهذا مفيد . وصاح برونيه في ظهره :

ـ اذا تحدثت الى الالمان ، فسيكون هناك تحطيم.

والتفت فيكاريوس ، وللمرة الاخيرة رأى برونيه شنايدر . وقال شنايدر :

ـ يا لصديقي برونيه المسكين !

وانغلق الباب ، انتهى الامر . وفكر برونيه : « انطفأ الموقد . سوف يصيبني الموت . » ونظر لحظة الى صندوق الفحم ، ثم انفتل وخرج ، انه ذنبك ، لم يكن عليك سوى الا تكذب . وعند نهاية الممر ، فتح الباب . وكان شاليه جالسا على المقعد الخشبي ، وكان توسو وبنين ولامبرشت منحنين فوقه يتحدثون كلهم معا ، وعلى مقربة من النافذة، كان موريس مشتبك الذراعين يمضغ غضبا . وحين دخل برونيه صمت الجميع . وسأل برونيه :

ـ ألستم اذن في العمل ؟

فشرح توسو : ـ ان الضابط الالماني مريض وقد اعادونا الى الاكواخ .

قال برونو : ـ حسنا ، حسنا

واضاف في غضب :

ـ ولكن ، يلعن دين .. اوقدوا النار !

فنظر اليه شاليه باهتمام ، وقال له برونيه :

ـ تعال ، فسوف نتحدث .

فنهض شاليه من غير ان ينبس بكلمة . وفي الممر قال له برونيه :

ـ انتهى الامر .

قال شاليه : ـ ارى ذلك

وسارا في صمت ، ثم سأل شاليه :

ـ اتراه سيكون عاقلا ؟

فانفجر برونيه ضاحكا ؟

ـ عاقلا كالصورة .

ودخلا غرفة برونيه ، في حرارة ميته كفت عن ان تدفيء . وبدت على شاليه الخيبة ، وقد رفع ياقة معطفه ، ووضع يديه في جيبيه وجلس . ونظر برونيه الى الموقد الهامد ، فأخذته الرغبة في الضحك . وقال شاليه بعد لحظة :

ـ أتعرف انه قد جرت لي اتصالات

فارتعش برونيه ونظر الى شاليه في هوس :

ـ اتصالات جدية كثيرة ؟؟

وابتسم شاليه :

ـ اظن ان نعم

ـ كانت اخر مرة رأيته فيها ، يوم الاثنين.

وظل برونيه ينظر الى شاليه ولكنه لم يكن بعد ليراه . وسأل :

ـ كيف حال « الحزب » ؟؟

قال شاليه : ـ لا بأس . في البدء ، اخطأ : فان الاذاعة السوفياتية ، كانت قد طلبت من المناضلين الا يغادروا المنطقة الباريسية ، ولكن معظم الرفاق حصل لديهم رد فعل شوفيني قديم : لقد خرجوا رغم ذلك ، لانهم لم يكونوا يريدون ان يلتحموا بالعدو . النتيجة : كان بوسع « الاومانيتيه » ان تظهر قبل وصول الالمان ، وكانت النسخة جاهزة ، ولكن كل شيء ظل معلقا لانعدام العمال والموظفين . اما الان ، فالرفاق في مراكزهم ، والحال على ما يرام .

وكان برونيه يستمع بمزيج من الاحترام والضجر : لقد كان خائبا . كان ثمة اسئلة يود لو يطرحها ، ولكنه لم يكن ينجح في تركيبها . قال :

ـ لا بد ان يكون قد حدث تغير كبير في الموظفين ، بسبب الاسر والهجرة . فمن هم الذين يتولون اللجنة المركزية الان ؟

فبسم شاليه بسمة خفيفة :

ـ الحق اقول اني لا اعرف من الامر شيئا. الارجح ان يكون فيها غرومير : وهذا كل ما استطيع ان اقوله لك . لقد تغيرت الازمان يا عزيزي : فكلما قلت معلوماتك كان ذلك أفضل .

قال برونيه : ـ لقد فهمت .

واحس بانقباض في صدره ، ومن غير ان يعرف السبب ، تنحنح شاليه ثم عاد يرفع رأسه ويتأمل برونيه لحظة ، وسأله :

ـ وبنين هذا ، أيكون منا ؟

ـ نعم .

ـ وتوسو ؟؟ ولامبرشت ؟؟

ـ ايضا .

ـ من اين هم قادمون ؟

قال برونيه : ـ انتظر قليلا

وفكر لحظة ثم قال ، كأنه يلقي درسا :

ـ بنين : رسام في غفوم ورهوم . لامبريشت: مسلخ نانت البلدي . توسو صانع اقفال في برجوراك . لماذا ؟؟

قال شاليه : ـ لقد فاجأوني

فرفع برونيه حاجبيه ، وبسم له شاليه بسمة ود :

ـ انهم مهتاجون قليلا ، اليس كذلك ؟

فردد برونيه : مهتاجون ؟ ليس بصورة ملحوظة .

فأخذ شاليه يضحك :

ـ ان توسو يزعم ان تحت الكوخ اسلحة مخبأة . فهو يريد ان يستولي على المعسكر حين تدخل الجيوش السوفياتية الى المانيا .

فضحك برونيه بدوره وقال :

ـ ان اصله من غاسكونيا .

وكف شاليه عن الضحك ، وقال ملاحظا بصوت محايد

ـ وكان الاخران موافقين .

واخرج برونيه غليونه الجديد فحشاه وقال:

ـ ربما كانوا مهتاجين قليلا ، واعترف اني لا افهم الامر تماما . ولكن ذلك ، مهما يكن لا يمكن ان يعود عليهم بالاذى ، انه يساعدهم على تمضية الوقت .

واضاف ، من غير ان يرفع عينيه ، بصوت ثقيل متفهم لم يعرفه هو نفسه :

ـ هم مدركون بانهم هالكون اذا استسلموا، فهم لذلك يعيشون على اعصابهم ، ويتريثون فتكون كل ردود فعلهم مبالغا فيها . أتعلم يا شاليه ان اكبرهم سنا لا يبلغ الخامسة والعشرين ؟

قال شاليه : لقد لاحظت ذلك ، فانتم تبدون جميعا متوترين توترا مريعا .

واضاف بضحكة صغيرة :

ـ لقد رووا لي اشياء غريبة !

ـ ماذا مثلا ؟

ـ ان الحرب لم تنته ، وسيسحق الاتحاد السوفياتي المانيا ، ومن واجب العمال ان يرفضوا الصلح ، وستكون هزيمة المحور انتصارا للبروليتاريا .

وتوقف ليراقب برونيه . فلم يقل برونيه شيئا . واضاف شاليه وهو يغتصب ضحكته قليلا :

ـ بل ان هناك من سألني اذا كان العمال الباريسيون قد اضربوا ، واذا كانت النار تطلق على الالمان في شوارع باريس .

وظل برونيه على صمته : وانحنى شاليه تجاهه وسأله بهدوء:

ـ أتكون انت الذي ادخل هذه الافكار في رؤوسهم ؟

قال برونيه : ـ ليس بهذا الشكل !!

ـ بهذا الشكل او بسواه ، أتكون انت ؟

واشعل برونيه غليونه . ان شيئا ما يحدث . وقال :

ـ نعم . انا .

وصمت كلاهما . وكان برونيه يدخن ، وشاليه يفكر . وتسلل من النافذة شعاع حزين اصفر : ستمطر السماء بكل تأكيد . ورمى برونيه نظرة على ساعته وفكر : « انها ليست الا الساعة الثامنة والنصف ، ونهض فجأة ، وقال :

ـ يجب ان اشرح لك هذا كله ، قليلا . اتراهم قد حدثوك عن تنظيمنا ؟

فقال شاليه في شرود :

ـ سمعت عنه كلمتين اثنتين . أأنت الذي اشرفت عليه ؟

ـ نعم .

ـ بمبادرة خاصة منك ؟

فرفع برونيه كتفيه واخذ يسير ، وقال :

ـ طبعا . فانا لم يكن لدي اتصالات .

وظل يمشي ، وعينا شاليه تتبعانه ، واضاف :

ـ كان يجب مقاومة تيار غريب . فقد كان الافراد متلاشين ، وكان النازيون والخورانة الصغار يصنعون بهم ما يشاءون بل انت تعلم ان هنا حزبا فرانكيا معترفا به رسميا ، ويشرف عليه الالمان ، فلم اجد الا ان استعمل الوسائل المتيسرة .

فسأله شاليه : ـ اية وسائل ؟

قال برونيه : ـ كان ثمة اربعة عوامل حاسمة : الجوع ، والنقل الى المانيا ، والعمل الشاق ، ورد الفعل القومي . وقد افدت منها جميعا .

فرد شاليه : ـ منها جميعا ؟

ـ نعم ، منها جميعا . كان ثمة خطر الموت ، ولم يكن لي الحق بان الجأ الى الصعوبة والصرامة . والحق ان مهمتي كانت محددة بالظروف تماما : فلم يكن علي الا ان انظم استياءهم .

ـ على اية قاعدة ؟

فلمس برونيه الحاجز براحته ، وانفتل فجأة ثم توجه نحو الحاجز الاخر ، وقال :

ـ لقد اعطيتهم خلفية ايديولوجية ، اقصد الفباء صغيرة : السيادة تأتي من الشعب ، بيتان يغتصب السلطة ، لم يكن لحكومته الحق بتوقيع الهدنة ، الحرب لم تنته ، سيدخل الاتحاد السوفياتي الى الحلبة عاجلا ام اجلا ، فعلى جميع الاسرى ان يعتبروا انفسهم مقاتلين .

وانقطع فجأة ، فسأل شاليه :

ـ اهذا هو عملك ؟

قال برونيه : ـ هذا هو .

فهز شاليه راسه بحزن :

ـ طبعا .

ونظر الى برونيه فبسم له بسمة منفتحة :

ـ هناك لحظات يموت فيها المرء غما ، ان لم يحاول فعل شيء ، اليس كذلك ؟ اي شيء . ولما لم يكن لك اتصالات ، فقد ظللت بلا عمل .

قال برونيه : ـ كفي ، ولا تتعب نفسك .

وتكلم بصوت قاس ، ولم يعرف اذا كان يوجه كلامه بعد الى شاليه ، او الى « الحزب » ، وسال :

ـ بكلمتين ، ما الذي تأخذه علي ؟

فاجاب « الحزب » بصوت اقسى :

ـ كل شيء ينبغي ان يعمل من جديد ، يا عزيزي ، انك تماما على الهامش .

وصمت برونيه . وانحنى شاليه وجس الموقد بهيئة اعياء :

ـ لقد انطفأ .

فجس برونيه الموقد بدوره وقال :

ـ نعم . لقد انطفأ .

ـ هل سمعت من يتحدث عن الديغولية ، في حيك ؟

ففكر برونيه : على قدر ما سمعت انت . وهم بان يقول : « ان لدينا جهاز التقاط . » ولكنه تمالك نفسه ، وقال :

ـ بغموض .

فقال شاليه بصوته التعليمي الهائل :

ـ ان ديغول جنرال فرنسي ترك بوردو ساعة الهزيمة مصطحبا معه رجال السياسة الراديكاليين ووجهاء الماسونية .

قال برونيه : ـ لقد فهمت .

ـ وهم الان جميعا في لندن . وتشرشل يعبرهم اذاعته فيهاجمون المانيا كل يوم في المذياع . وبالطبع فان حكومة بريطانيا هي التي تدفع .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك ؟ اتدري ماذا يقولون ؟

ـ افترض انهم يقولون ان الحرب مستمرة؟

ـ نعم ، وانها ستشمل العالم كله ، وتلك طريقة خفية لدفع الاتحاد السوفياتي وامبركا الى المغطس . وهم يقولون ايضا ان فرنسا لم تخسر الا معركة ، وان حكومة فيشي غير شرعية ، وان الهدنة خيانة .

فهز برونيه كتفيه ، وابتسم شاليه :

ـ غير انهم لا يمضون الى حد ان يتكلموا عن سيادة الشعب ـ كلا ، ولكن ذلك سياتي يوما اذا رات حكومة جلالته ان ذلك ضروري لدعايتها .

قال برونيه : ـ انك لا تثير انفعالي .

وضم يديه ، وجعل اصابعه تفرقع ، ثم استطرد في هدوء :

ـ انك لا تثير انفعالي . لقد سبق ان قلت لك ان منهاجي كان الفباء . وفيما بعد ، سنمضي الى ابعد . فان في هذا الكوخ اشخاصا اقتادهم بيدي الى الحزب الشيوعي . ولكن ليس ثمة ما يدعو الى العجلة : اننا هنا لمدة طويلة . اما رفاقك الصغار في لندن ، فماذا تريد ؟ ان هناك لقاءات لا مفر منها . انما يحارب الانكليز المحور لحماية مصالحهم ، ونحن نكافح ضد هتلر لاننا ضد الفاشستية . ولكن هذا لا يمنع ان يكون لنا ظاهريا الاعداء انفسهم ، فليس عجيبا اذن ان نستعمل احيانا الكلمات نفسها .

ونظر الى شاليه واخذ يضحك ، كما لو انه سوف ينطق بنكتة طريفة ، ولكن حنجرته انقبضت :

ـ حتى اشعار اخر ، افترض ان محاربة الفاشية لم تصبح انحرافا .

قال شاليه : ـ لا ، انها لم تصبح انحرافا، فنحن ضد الفاشية بكل اشكالها ، كما كنا دائما . ولكنك ستكون على خطأ اذا استنتجت باننا سنقترب من الديموقراطيات البورجوازية .

فصاح برونيه : ـ انني لم افكر بذلك مطلقا .

ـ ان ما تفكر به لا اهمية له . فانك موضوعيا تمارس البغاء لصالح خدم تشرشل .

فانتفض برونيه ، وقال :

ـ انا ؟

وهدأ نفسه ، وابتسم ، ولاحظ انه اغلق قبضتيه ، ففتح يديه ووضعهما على ظاهرهما فوق ركبتيه وقال :

ـ ان ذلك يدهشني .

قال شاليه : ـ افترض انه اطلق سراح الفتيان الذين اقنعتهم بارائك . انهم يعودون الى فرنسا ، فينكرون كل شيء وكل انسان ، وتوحي لهم دعاية فيشي برغبة التقيؤ . فاين تراهم سيذهبون ؟

قال برونيه : ـ ولكن ...

واحرقته عينا شاليه :

ـ اين تراهم سيذهبون ؟

قال برونيه بمرارة :

ـ كنت افترض حتى الان انهم سيذهبون الى « الحزب » .

فابتسم شاليه واستطرد بهدوء :

ـ سيرتمون خافضي الراس في الديغولية ، وسيذهبون فيعرضون حياتهم للهلاك في حرب استعمارية لاتعنيهم ، وستكون انت ، برونيه ، من دعمت بسلطتك هذه الخدعة .

وانطفأ النظر ، وحاول شاليه ان يبتسم ولكن وجهه كف عن الاستجابة له . فكان الصوت وحده يخرج حارا مقنعا من هذا القناع البنفسجي ذي الانف القرمزي :

ـ ليست هي باللحظة المناسبة ، يا برونيه، لقد ربحنا ، واخطر اعدائنا راكع على ركبتيه ...

فردد برونيه من غير ان يفهم :

ـ اخطر اعدائنا ...

فقال شاليه بقوة :

ـ نعم ، اخطر اعدائنا . استعمار

الجنرالية الفرنسيين والمئتي اسرة .

فسأل برونيه :

ـ اهذا هو ، اخطر اعدائنا ؟

وشنج يديه على ركبتيه ، ونجح في ان يقول بصوت محايد :

ـ ان « الحزب » قد غير سياسته .

فنظر اليه شاليه بتنبه :

ـ ولنفرض انه غيرها ، فما الذي ستفعله ؟

فهز برونيه كتفيه :

ـ انني اسالك ببساطة اذا كان قد غيرها ؟

قال شاليه : ـ ان الحزب لم يحد مقدار سنتمتر واحد . لقد اتخذ عام ١٩٣٩ موقفا ضد الحرب ، وانت تعرف ما كلفنا ذلك . ولكنك كنت موافقا ، يا برونيه ، وكان « الحزب » على حق . كان على حق لانه كان يعبر عن نزعة السلام الرئيسية لدى المجموع ، شيوعية كانت ام لا . وليس لنا الان الا ان نقطف ثمرة هذا الموقف : ان منظمتنا هي الوحيدة التي تستطيع ان تجعل نفسها ترجمان ارادة العمال في السلم . فاين هو التغير ؟ اما انت ، فقد كنت في هذه الاثناء تضرب على وتر النزعة القومية لدى رفاقك ، وتود لو تدفعنا الى سلوك سياسة القوة . ليس « الحزب » هو الذي تغير يا برونيه ،بل انت .

فاستمع برونيه الى صوت هذا المكبر ، مسحورا : انه ليس بعد صوت احد ، بل هو صوت التطور التاريخي ، صوت الحقيقة . ومن حسن الحظ ان عيني شاليه اخذتا تلمعان . وانتفض برونيه وسأل بجفاء :

ـ اهو رايك ما تعرض لي ، ام انه سياسة الحزب الحالية ؟

قال شاليه : ـ ليس لي من رأي قط ، وانما انا اعرض لك سياسة « الحزب » .

قال برونيه : ـ حسنا ، اذن تابع ، فانا مصغ اليك ، ولكن لاتعلق ، فاننا بذلك نضيع وقتنا .

فقال شاليه مندهشا :

ـ ولكني لا اعلق .

ـ انت لاتفعل غير ذلك . انك تقول : كان الحزب الشيوعي عام ٣٩ يعبر عن نزعة الجموع السلمية . فهذا « رأي » ياشاليه ، ليس الا رأيا . اننا بضعة افراد في الحزب» الذين عرفنا ان انعطاف ايلول كان انعطافا مفاجئا معاكسا للاتجاه السابق ، واننا كدنا نفوته . اننا بضعة افراد الذين علمنا على حسابنا ان الجموع لم تكن في تلك الحقبة سلمية الى هذا الحد .

ورفع ساعده ويده كشاليه ، وابتسم كشاليه ، بسمة موجزة ضيقة .

ـ انني اعلم : فانت لم يتح لك قط ان تقوم باتصالات كثيرة مع القاعدة ، فلم يكن هذا شأنك ، وقد سبق ان لاحظت انك كنت تتكلم في هذا ببعض الرومنتيكية . اما « انا » ، فقد كانت لي اتصالات ، وكان هذا عملي ،كنت اعمل في صميم العجين ، وبوسعي ان اؤكد لك ان الافراد لم يكونوا « اولا » سلميين ، بل كانوا « اولا » مناهضين للنازية ، ولم يكونوا قد هضموا قضية الحبشة ولا قضية اسبانيا ، ولا ميونيخ . ولئن ظلوا معنا عام ٣٩ ، فلانهم قد اوضح لهم ان الاتحاد السوفياتي كان يريد ان يربح وقتا ، وانه سيدخل الحرب بمجرد ان يكون قد اتم تسلحه .

وبادله شاليه بسمته . ان برونيه لم ينجح حتى في دفعه الى الغضب . وقال شاليه ببساطة :

ـ ان الاتحاد السوفياتي لن يدخل الحرب ابدا .

فصاح برونيه : ـ هذا رأيك « انت » ! رأيك « انت » !

وهدأ نفسه واضاف مقهقها :

ـ اما انا ، فان رأيي مخالف .

قال شاليه : ـ « انت » . « انت » ، « انا » ... مادخلنا في هذا ؟

وكان ينظر الى برونيه في دهشة ساحقة ، كما لو انه كان يراه للمرة الاولى ، واضاف بعد لحظة :

ـ ليس لدي شعور بأني قريب الى نفسك.

فقال برونيه منزعجا : ـ دعك من هذا .

وضحك شاليه ضحكة خشنة ، وقال :

ـ اوه ! انما احدثك في هذا للذكرى . فليس هو بالامر الذي سيمنعني من النوم .غير انه ينبغي الا ننخدع : فلسنا بصدد ان نقارن وجهتي نظرنا . لقد كانت لي اتصالات حين لم يكن لك مثلها ، هذا كل ما في الامر . فلا شخصك ولا شخصي موضوع بحث . اننا لن نصنع أي شيء جيد اذا توقفنا منذ البدء عند قضايا شخصية .

قال برونيه بجفاء : ـ هذا ماأعتقده تماما.

ونظر الى شاليه محاولا الا يراه بعد ؟ وكان يفكر : ان شخصه ليس موضوع بحث . وليس شخص شاليه هو الذي ينظر ويحكم ، ان شخص شاليه لايحكم ولا يفكر ، ولا يرى . فلا مجال لان تجعل القضية قضية شخص ، ولا مجال لان تجعل قضية كبرياء ، وقال :

ـ ان الاتحاد السوفياتي اذن لن يخوض الحرب ، لماذا ؟

ـ لانه بحاجة الى السلام : لان المحافظة على السلام هي منذ عشرين سنة الهدف الاولى لسياسته الخارجية .

قال برونيه في ضجر :

ـ نعم ، لقد سبق لي ان سمعت مثل هذا في خطب ١٤ تموز .

وضحك :

ـ المحافظة على السلام ! أي سلام ؟ ان القتال ناشب من الزوج الى الحبشة .

قال شاليه : ـ من اجل هذا بالضبط . ان الاتحاد السوفياتي سيبقى خارج النزاع وسيبذل كل مافي وسعه ليحول دون ان يعم هذا النزاع .

فسأل برونيه في سخرية :

ـ وكيف عرفت ذلك ؟ هل أطلعك ستالين على الموقف ؟

فقال شاليه بهدوء :

ـ ستالين لا ، ولكن مولوتوف .

فنظر اليه برونيه ، وفغر فاه ثم صمت ، واستطرد شاليه :

ـ لقد صرح مولوتوففي اول آب امام المجلس الاعلى للسوفيات ان للاتحاد السوفياتي والمانيا المصالح الاساسية نفسها ، وان الاتفاق الجرماني السوفياتي كان يقوم على ان هذه الاهداف بينهما مشتركة .

قال برونيه : ـ حسنا ، نعم ، نعم ، وبعد ذلك ؟

فقال شاليه :

ـ لقد سافر في تشرين الثاني الى برلين حيث استقبل استقبالا حماسيا . وقد فضح في تلك المناسبة مناورات الصحافة الانكليزية والمؤيدة للانكليز ؟ وقال ما معناه : « ان الديموقراطيات البورجوازية تعلق املها الاخير على خلافات مزعومة تفصلنا عن المانيا ، ولن يلبثوا طويلا حتى يروا ان هذه الخلافات غير موجودة الا في مخيلتهم . »

قال برونيه : ـ يعني ، كان مضطرا الى ان يقول هذا .

فقال شاليه :ـ منذ ثلاثة اسابيع ، وقع الاتحاد السوفياتي والمانيا معاهدة تجارية وسوف يقدم الاتحاد السوفياتي خمسةوعشرين مليون قنطار من القمح ، ومليونا ونصف المليون طن من المازوت والبنزين والنفط والبترول والزيوت الثقيلة .

وردد برونيه : ـ اتفاق تجاري ؟

ـ نعم .

قال برونيه : ـ حسنا . اصبح معلوما .

ونهض متجها الى النافذة ، ووضع جبينه على الزجاج المثلج ، وراح ينظر الى قطرات المطر الاولى تسقط ، وقال :

ـ انني لا ...

فسأله شاليه من خلف ظهره :

ـ عفوا ؟

ـ لا شيء . كل مافي الامر اني أخطأت .

وانفتل ، وعاد الى الجلوس ، وضرب غليونه بكعبه ليسقط منه الرماد ، وقال شاليه في ود :

ـ اذا نظرت الى الوضع نظرة حسية ، رأيت ان العمال الفرنسيين ليست لهم اية مصلحة في ان يشترك الاتحاد السوفياتي في النزاع.

قال برونيه :ـ العمال الفرنسيون ، انهم

هنا ، في هذا المعسكر ، او في معسكرات اخرى شبيهة ، والذين ليسوا هنا يقومون بعمل اجباري من اجل الالمان .

قال شاليه : ـ من اجل هذا بالضبط ، ينبغي ان يتابع سياسته المستقلة ، ان الاتحاد السوفياتي بسبيل ان يصبح بكل بساطة العامل الراجح في الدبلوماسية الاوروبية . وعند نهاية الحرب ، ستكون الامم المشتركة في النزاع منهوكة القوى ، وسيكون هو الذي سيملي معاهدة الصلح .

قال برونيه : ـ حسنا ، حسنا ، حسنا .

وكان شاليه قد كف عن الارتجاف ، ونهض وراح يمشي بحيوية حول كرسيه ، وانبثقت يداه من جيبه ، انه يتفتح . انحنى برونيه ، فالتقط عودا خشبيا وراح ينظف غليونه ،وكان مقرورا حتى العظام ، ولكن ذلك كان لديه سواء : فليس للبرد والجوع بعد من اهمية على الاطلاق .

وقال شاليه : ـ اذا اعتبرنا ذلك كذلك ،فما الذي ينبغي ان تطلبه الجموع الفرنسية ؟

فقال برونيه من غير ان يرفع رأسه :

ـ هذا ما أسالك اياه .

ودار صوت شاليه فوق رقبته ، قريبا تارة، بعيدا تارة اخرى ، وكان حذاء شاليه يطقطق بجذل . وقال :

ـ الجموع الفرنسية ، عليها ان تتبنى اربعة مطالب : ١ ـ توقيع الصلح فورا . ٢ ـ ميثاقا فرنسيا سوفياتيا بعد الاعتداء يوضع على غرار الميثاق الجرماني السوفياتي . ٣ ـ معاهدة تجارية مع الاتحاد السوفياتي تؤمن البروليتاريا ضد المجاعة . ٤ ـ تسوية عامة للوضع الاوروبي بالاشتراك مع الاتحاد السوفياتي .

وسال برونيه : ـ والسياسة الداخلية ؟

ـ المطالبة في كل ظرف وبكل وسيلة بشرعية « الحزب » وبالسماح « للاومانيته » بالعودة الى الظهور .

فسال برونيه مذعورا : ـ النازيون يسمحون بعودة « الاوما » الى الظهور ؟

فقال شاليه : ـ انهم يسايروننا .

واضاف من غير عجلة :

ـ علام تريدهم ان يعتمدوا ؟ ان الاحزاب في ابان الانحلال ، وقد لاذ المسؤولون بالفرار.

ـ يمكنهم ان يخلقوا حركة فاشية .

ـ يمكن ان يحاولوا . وهم بكلمة واحدة ، يحاولون : ولكنهم ليسوا مجانين ، فهم يعلمون جيدا انهم لن يصلوا ابدا الى الطبقات الشعبية اجل ، ان المنظمة الوحيدة التي وقفت ضد الحرب ، والوحيدة التي دافعت عن الميثاق الجرماني السوفياتي ، والوحيدة التي احتفظت بثقة الجماهير ، انما هي منظمتنا ، وبوسعك ان تتيقن من ان الالمان لايجهلون ذلك .

ـ اتعني انهم يمدون الينا يدهم ؟

ـ لم يحدث هذا بعد . ولكن الواقع ان صحافتهم لا تهاجمنا . ثم لاتنس انهم وقعوا اتفاقات سرية مع الاتحاد السوفياتي في موضوع الاحزاب الشيوعية الاوروبية .

وانحنى على برونيه وحدثه في مسارة :

ـ ان على حزبنا ان يكون في وقت وحيدا مشروعا ولا مشروعا ، وهذا مايحدد بنيته وعمله وقد اتفق ان الظروف وضعتنا في نصف سرية ، وكنا قد جمعنا في ايدينا مزايا الشرعية ومزايا اللاشرعية ، اما الان فلم يبق لنا الا مساويء تلك ومساويء هذه : فاننا اذ نفقد كيان « الحزب » المعترف به رسميا ، نفقد امكانية احتلال الاوضاع ـ المفاتيح للبرجوازية، امكانية توكيد مطالبنا في وضح النهار ، ونفقد بصفتنا شيوعيين ، ولكننا في الوقت نفسه معروفون اكثر مما ينبغي : ان سلطات «الحزب» مطاردة ، والعدو يملك لوائح وعناوين ، وقد جرب خطتنا تجربة واسعة . فيجب علينا ان نخرج من ذلك باقصى سرعة . ولكن كيف ؟ بان نداعب الالمان ، وبان نكتب : « الموت للالمان » في المباول العامة ؟

فهز برونيه كتفيه ، ورفع شاليه يده ليدعوه الى السكوت :

ـ لنفرض ان باستطاعتنا ان ننظم اضطرابات واغتيالات واضرابات . فمن يفيد من هذا ؟ الاستعمار البريطاني . لا لمدة طويلة ، لان انكلترا مهزومة سلفا . اما اذا اصبحنا من جديد حزبا شرعيا ذا برنامج ومسؤوليات ، فبوسعنا ان نطالب بحكومة شعبية تقيم في باريس ، وان نطالب بوضع مروجي الحرب موضع الاتهام . واذ ذاك ، واذ ذاك فقط ،تطرح قضية شكل جديد للعمل اللامشروع ، افضل انطباقا على الظروف .

ـ وتتصور ان الالمان ...

فقاطعه شاليه بخبث :

ـ « صوت الشعب » اتعرفها ؟ ان جريدة الحزب الشيوعي البلجيكي .

قال برونيه : ـ اعرف ذلك .

فتمهل شاليه هنيهة ، وابتسم ثم اضاف بلهجة محايدة :

ـ ان « صوت الشعب » عادت الى الظهور منذ حزيران .

وتراكم برونيه على كرسيه ، ودس يده في جيبه ثم اطبقها على غليونه لانه كان مايزال حارا ، وقال :

ـ « وهنا » ، ما الذي ينبغي ان يفعل ؟

ـ عكس ماتفعله تماما .

ـ يعني ؟

ـ مهاجمة استعمار الديموقراطيات البورجوازية ، مهاجمة ديغول وبيتان ، تأكيد ارادة جموع العمال بالسلام .

ـ وتجاه الالمان ؟

ـ التحفظ .

قال برونيه : ـ حسنا .

وفرك شاليه يديه : لقد قام بعمل جيد ،وهو مسرور ، وقال :

ـ سوف نقتسم العمل ، نحن الاثنين . فالرفاق بحاجة الى ان نعتني بهم من جديد شيئا فشيئا ، ولكن الافضل الا تتولى انت ذلك : سوف اراهم . اما انت ، فستهتم بمن ليسوا من « الحزب » .

ـ وما الذي ينبغي ان افعل بهم ؟

فنظر شاليه الى برونيه في تنبه ، ولكن لم يكن يبدو عليه انه يراه : انه يتأمل . وقال:

ـ ان منظمتك العظيمة هي الان خطرة اكثر منها مفيدة . ولكن لاضير في ان تبقى ، ويمكن ان تفيد يوما : فمن المرغوب فيه ان تنيمها من غير ان تصفيها تماما . وانت الوحيد الذي يستطيع القيام بذلك .

قال برونيه : ـ ياللمساكين !

ـ ماذا ؟

قال برونيه : ـ انني اقول : ياللمساكين .

فنظر اليه شاليه بدهشة :

ـ ولكن ما هؤلاء الافراد ؟

قال برونيه : ـ انهم راديكاليون ،اشتراكيون ... وهناك ايضا من لاينتمون الى حزب .

فهز شاليه كتفيه ، وقال في ازدراء :

ـ راديكاليون !

قال برونيه : ـ كانوا يعملون جيدا . ثم ان الحياة قاسية ، كما تعلم ، بالنسبة لمن ليس لهم هنا من امل .

وتوقف ، وقد عرف الصوت الغريب الذي يستعير فمه ، انه صوت خائن ، وكان يقول : « لاتتخذ هيئة طبيب الموتى » . وكان يقول : « يا للمساكين ! انهم في حزن عميق ، والموت في نفوسهم . »

قال شاليه : ـ مهما يكن ، فانهم هالكون . وليس ثمة الا ان ندعهم يموتون .

وقهقه :

ـ الراديكاليون ! انني مازلت افضل النازيين صحيح انهم كلاب ، ولكنهم يملكون حس الاجتماعي .

وفكر برونيه في تيبو ، وتمثل فمه العريض الضاحك ، وفكر : « انه هالك ، هو اقل قيمة من نازي ، وهو لا يملك حس الاجتماعي . » وفكر : « كان لدينا جهاز التقاط . » واخذ يرتجف ، وفكر : « جهازنا نحن » ونهض واخذ يسير ، وكانا واقفين ، وجها لوجه ، وقال :

ـ هذا منسجم منطقيا .

فقال شاليه في ود مفاجيء :

ـ كم هو منسجم منطقيا ، كما تقول !

قال برونيه : ـ ان كل شيء ينسجم منطقيا فبالامكان التدليل على كل شيء .

ـ هل تريد براهين ؟

وفتش شاليه في جيب سترته الداخلي ، فاخرج منه جريدة قذرة مدعوكة :

ـ خذ !

ـ التتمة على الصفحة ١٢٩ ـ

صداقة عجيبة

تتمة المنشور على الصفحة ١٠٨

فتناول برونيه الجريدة : انها « الاوما » . وقرأ : العدد ٩٥ ، ٣٠ كانون الاول ١٩٤٠ . وكانت الورقة من شدة التهرؤ بحيث تمزقت نصف تمزق حين نشرها . وحاول ان يقرأ الافتتاحية فلم يستطع ، وفكر : « انها الاوما » وأمر اصابعه متحسسا احرف الاسم والعنوان الرئيسي ، انها « الاوما » ، وقد كنت اكتب فيها . وطوى الجريدة بعناية ثم مدها الى شاليه :

ـ حسنا . يكفي .

سيخرج ويبتسم لشنايدر ، وسيقول له : « لقد سبق ان اخبرتني ذلك . »

وانفجرت الفقاعة : ليس ثمة بعد من شنايدر ، هناك فيكاريوس ، الماكر ، واسود النور امام عينيه ، وتلقى ضربة على كتفه فانتفض ، انه شاليه ، وكان فم شاليه يرسم بسمة طائشة وانسحبت يده بدقة اليه وتدلت من جديد على جنبه .

قال شاليه : ـ وهكذا ! هكذا ، يارفيقي القديم !

وكانا يتبادلان النظر مواجهة،وهزا رأسيهما وابتسم احدهما للاخر ، في عام ٣٩ ، كان يخاف مني ، وقال برونيه :

ـ يجب ان اذهب فاخبر تيبو ، تستطيع ان تبقى هنا .

فهز شاليه راسه ، وانهارت ملامحه ، فقال بصوت طفولي :

ـ بل اعتقد اني سالتف بغطاء واتمدد على سريري .

قال برونيه : ـ ان الاغطية موجودة وراء الموقد . خذ اثنين ، سارات ثانية ..

وخرج تحت المطر . وعدا ليتدفأ . ودخل الضباب الى راسه ، ولم يكن ثمة بعد لاخارج ولا داخل : لا شيء بعد الا الضباب . وكان تيبو وحده ، وكان على الطاولة ورق لعب .

ـ هل تقوم باستخارات ؟

قال تيبو ـ لا ، بل كنت استمع الى الراديو ، وانما اترك ورق اللعب على الطاولة ليراه من قد ياتي .

وبسم بخبث : لا بد ان هناك اخبارا ،وانتظر ان يساله برونيه . ولم يساله برونيه : انه لايهتم بانتصارات الاستعمار البريطاني ، وقال:

ـ أيبقى ثمة مكان في ماخورك ؟

قال تيبو : ـ نعم ، في كوخ الهولنديين .

ـ سوف ابعث لك باحد افراد كوخي ، بالسر .

فالتمعت عينا تيبو :

ـ من هو ؟

ـ شنايدر .

فسأل تيبو : ـ أتراه يشكو شيئا ؟ هل يبحث عنه الالمان ؟

قال برونيه : ـ لا ، ليس في هذه الفترة .

قال تيبو : ـ فهمت « وهز راسه » سوف ينبعص ، فان الهولنديين لايتكلمون جبة خردل بالفرنسية .

ـ هذا حسن ايضا .

ـ اذن ، فليأت متى شاء .

وسأل برونيه : ـ هل الجو حار لدى الهولنديين ؟

ـ انه أتون . هناك من هو طباخ ، فهم يعطون كل الفحم الذي يريدون .

قال برونيه : ـ ممتاز ! واذن ، فاني ذاهب .

ولكنه لم يذهب ، بل وضع يده على مقبض الباب واخذ يتطلع الى تيبو ، كما يتطلع المرء الى مدينة يوشك ان يغادرها . ولم يكن قد بقي له ما يقوله له . راديكالي ، انسان هالك سلفا ... وبسم له تيبو بسمة ثقة ، ولم يستطع برونيه ان يحتمل هذه البسمة : ففتح الباب وخرج . وفي الخارج ، كان المطر يهطل بغزارة ، حتى ان المرء يكاد لا يميز الاكواخ . وخبط برونيه في الوحل وفي الثلج الذائب . كان افراد الكوخ التاسع والثلاثين قد تركوا مقعدا خشبيا في الخارج ، وكان ثمة رجل يجلس على المقعد ، خافض الرأس ، والمطر يسيل في شعره وعلى عنقه . واقترب برونيه :

ـ هل انت مجنون ؟

فرفع الرجل راسه انه فيكاريوس . وقال برونيه :

ـ ان تيبو ينتظرك .

فلم يجب فيكاريوس . وجلس برونيه الى جانبه ، وظلا صامتين ؟ ولامست ركبة فيكاريوس ركبة برونيه . وسال الزمن ، وسال المطر ، والزمن والمطر ، شيء واحد ، وبعد لحظة نهض فيكاريوس ومضى . وظل برونيه وحده، خافض الرأس ، والمطر يسيل في شعره وعلى عنقه .

ـ ٢ ـ

تثاءب برونيه : الظهر ، عشر ساعات للقتل. وتمطى فخنقته قوته . يجب ان اتعب نفسي. ابتداء من الفد ، رياضة حتى الارهاق . وطرق الباب ، فاستقام : زيارة ، وهذا ما يزجى الوقت على كل حال .

ـ ادخل !!

ولم يكن الا تيبو . وقد دخل وقال :

ـ انت وحدك ؟

قال برونيه : ـ كما ترى

ـ ارى ، ولكني لا اصدق عيني . اليس شاليه ، هنا ؟

قال برونيه وهو يتثاءب:

ـ انه لدى طبيب الاسنان

فتلوى تيبو من الضحك

ـ هذا الجهيض ، يشكو الالم دائما في مكان ما .

وتناول كرسيا فدفعه بازاء كرسي برونيه وجلس :

ـ انكما لا تفترقان بعد ، انت وشاليه

فقال برونيه موضحا : ـ ذلك اني بحاجة اليه طوال الوقت . انه ترجمان .

ـ اليس شنايدر ، هو الذي كان ترجمانا قبل ذلك ؟

ـ بلى ، كان شنايدر .

فهز تيبو كتفيه :

ـ انك كالمرأة الجميلة التي تغير عشاقها . في الشهر الماضي ، لم يكن ثمة غير شنايدر اما الان ، فكل شيء لشاليه . كنت افضل شنايدر .

قال برونيه : ـ مسالة ذوق

والقى تيبو راسه الى خلف ، وتأمل برونيه عبر جفونه :

ـ الستما بعد صديقين ، انت وشنايدر ؟

ـ بلى ، بالتاكيد .

فقال تيبو ببسمة شاحبة :

ـ ستكون اذن مسرورا . لقد حملني اليك رسالة .

ـ شنايدر ؟

ـ انه يريد ان يراك

فرد برونيه : شنايدر ؟

ـ اجل ، شنايدر . لقد طلب مني ان ابلغك انه سيكون في الساعة الواحدة خلف الكوخ ٩٢ .

فلم يقل برونيه شيئا ، ونظر اليه تيبو في فضول :

قال برونيه : ـ قل له اني ساحاول ان اكون هناك .

ولم يذهب تيبو ، وفتح فمه العريض وضحك، ولكن عينيه ظلتا مزعجتين :

ـ انني مسرور برؤيتك يا عزيزي

قال برونيه : ـ وانا ايضا .

ـ ذلك اننا نادرا ما نراك

ـ ان لدي عملا كثيرا .

ـ اعرف ذلك . وانا ايضا . ولكن بوسع المرء ، اذا شاء ، ان يجد دائما متسعا من الوقت . ان الافراد يسالونني عشر مرات في النهار عنك .

فلم يجب برونيه . وقال تيبو :

ـ بالطبع ، لقد اتلفت جهاز الراديو ، فلم نعد نعرف شيئا . اننا مشلولون : والجميع ثائرو الاعصاب .

وتضايق برونيه تحت هذا النظر الثابت ، واجاب بجفاء :

ـ لقد سبق ان شرحت لك . ان هناك من كان لسانه اطول مما ينبغي ، فالالمان يراقبوننا

وفي هذه الفترة يجب ان نباعد مابين اتصالاتنا وتلك هي درجة الاحتراس البدائية .

ولم يبد على تيبو انه قد سمع ، فتابع بهدوء :

ـ هناك من يقول انك لم تكن بحاجة للقيام بكل ماقمت به ، ثم تتخلى عنا لدى الضربة الاولى القاسية .

قال برونيه بمرح :

ـ يعني ! يعني ! ان الامر كذلك دائما في السياسة : ندوس ونتراجع ثم نعود الى الانطلاق من جديد .

وضحك ، فنظر اليه تيبو من غير ان يضحك وسمع ركل قدم على الباب ، فنهض برونيه بحماس وذهب يفتحه ، فاذا هو مولو محمل الذراعين بالمعلبات ، ودخل في اعقابه كورنو وبولين وكانا يحملان ارغفة خبز في غطاء .ووضع مولو العلب على الطاولة ، ثم تراجع فتاملها بطيبة ، وهو يشبك يديه على بطنه .

ونهض تيبو قائلا :

ـ اذن الى اللقاء ، حين يصبح لديك متسع من الوقت .

قال برونيه : ـ وهو كذلك . الى اللقاء .

وخرج تيبو ، وقام مولو بحركة تجاه الباب :

ـ سأنادي الجماعة .

قال برونيه : ـ لا .

فنظر اليه مولو بذهول :

ـ ولماذا لا ؟

قال برونيه مشيحا برأسه :

ـ اليوم ، سنقوم بالتوزيع في الاكواخ .

ـ ولكن لماذا ؟

لماذا ؟ لان شاليه ليس هنا ، وقال بصوت آثم :

ـ هكذا .

قال مولو : لم يسبق لنا ان فعلنا هذا قط .

ـ تماما ، فهذه تجربة نعمل . واعتقد ان في ذلك كسبا للوقت .

ـ وما جدوى ان نكسب الوقت هنا ؟!

قال برونيه فاقدا صبره :

ـ كفى ! هيا اتبعوني !

وانتقلوا من كوخ الى كوخ ، كما في الماضي. وكان برونيه يدفع الابواب ويدخل ، فيدخل مولو على اثره وهو يعلن :

ـ اننا نخدمكم في بيوتكم ، ايها المحظوظون الصغار . انتظروا قليلا : فغدا سنحمل لكم الشوكولا الى السرير .

فلم يجب الافراد . كانوا عائدين من العمل، وكانوا متعبين ذوي نظرات بطيئة وحركات كثيفة ، وكان معظمهم جالسين على المقاعد ، واضعين أكفهم الكبيرة منبسطة على الطاولات وكانوا لاينظرون الى احد ، ويلتزمون الصمت. وفكر برونيه : كان شهر واحد كافيا ، شهر ، واذا بالكوخ يشبه سائر الاكواخ ، كانوا في الماضي ، يفنون عند الظهر ، وتردد امام كوخ الرفاق ، وكان به مثل الخوف : فهو لم يعد يدخله بدون شاليه ، وكان ذلك كأنما يعود من رحلة .

قال مولو : ـ ماذا ؟ انك تفتح لنا الباب ، اليس كذلك ؟

فلم يجب برونيه ، وبرم كورنو المقبض بيده اليسرى ، فدخلا تاركين الباب مفتوحا. وظل برونيه في الرواق . وقد التفتت اليه رؤوس دهشة ، فأصبح مضطرا للدخول .واجتاز العتبة وهو يفكر : « ماكان ينبغي ان افعل تلك غلطة هائلة . »

وقال الافراد : ـ عجبا ! هوذا برونيه .

قال برونيه : ـ نعم ، هأنذا .

وبحث عن نظر ، فلم ير الا جفونا نصف مغمضة ، وأحاط الافراد بالطاولة ، فأخذت ايد تجس الخبز والعلب ، وقال صوت :

ـ خراء ! ايضا معلبات !

قال مولو : ـ ياللمحظوظين الصغار ، اننا نخدمكم في بيوتكم ...

قال برونيه : ـ اخرس ! وغير الاسطوانة ..

وقد تكلم بصوت مفرط الارتفاع : ونفلت الانظار حوله ، وسرعان ماحجبتها الجفون ،فاذا الوجوه ، من جديد ، عمياء ، وقام برونيه بخطوة الى الامام ، وكان موريس مستندا الى خشب الفراش يتامله بهيئة وقحة كسول . وسال برونيه بجدل :

ـ واذن ايها الرفاق ، هل الامور على مايرام ؟

فقالوا : ـ لا باس ، لا باس .

وارتفعت الجفون من جديد ، وكان ثمة افراد ينظرون الى برونيه ، واخرون ينظرون الى اولئك الذين ينظرون اليه ، وكان يبدو على الجميع مايشبه الانتظار والخوف ، واحس برونيه بقوته ، ثم استولى عليه الخوف دفعة واحدة ، كان ينبغي الا يدخل ، تلك غلطة ،والان يجب ان يتكلم ، ان يقول اي شيء ، بسرعة ، فحتى الصمت تظاهرة ، وقال :

ـ ان شاليه عند طبيب الاسنان .

قال الافراد : ـ نعم ، عند طبيب الاسنان .

واضاف برونيه موضحا :

ـ من اجل هذا لم يات .

قال الافراد : ـ نعم ، نعم .

ـ كنتم تعرفون ذلك؟

ـ لقد اخبرنا امس بانه لن يقوم بدرسه هذا الصباح .

ـ درسه عن تاريخ « الحزب الشيوعي »؟

ـ اجل ، عن تاريخ « الحزب الشيوعي في فرنسا » .

وساد صمت ، ترى ، الى اي حد كسبهم شاليه ؟ والى اي حد مايزالون يصدقونني ؟ ورفع راسه ، فالتقى بنظر ، وصرف عينيه،خائفا انهم راغبون في ان اذهب ، واستولى عليه الغضب لدى رقبته ، فدس يديه في جيبه وجلس على طرف المقعد ، كما في السابق ،كان الافراد في الماضي يحيطون به . ولكنهم الان لايتحركون . وقال بصوت ارادهمعيدا للاطمئنان:

ـ سيستانف درسه غدا .

وكان يتكلم باللهجة نفسها التي كان يتخذها ليقول لهم : « سيدخل الاتحاد السوفياتي الحرب في الربيع . » وهز سوناك رأسه :

ـ ربما كان مضطرا للعودة الى هناك .

وكان سوناك يقول : « ربما لم يكن مستعدا. وربما كان مضطرا للانتظار عاما اخر . »

قال برونيه :

ـ هذا ماسوف يدهشني ، اعتقد انالمفروض ان يقلعوا سنه هذا الصباح .

فقال مايار موضحا في لهجة زهو :

ـ انها سن العقل ، وهي تنمو جانبيا .

ونهض برونيه ، وقال بسرعة :

ـ اودعكم ، اذن ، يا جماعة ! شهية جيدة !

فقالوا : ـ شكرا ، وشهية جيدة لك ايضا .

وانفتل وخرج ، وسار في الرواق ، وتجاوزه مولو وهو يعدو ، يلاحقه بولان وكورنو ، وكانوا يضحكون ، ودلفوا الى الخارج ، الى الشمس. ورآهم برونيه ، خفافا ازاء السماء المشرقة ، يدومون ويتماسكون وينفصلون وينحنون ليلتقطوا الثلج ، وحث خطاه ، فمسكر على عتبة الكوخ ينظر اليهم . وما لبثوا ان اختفوا وراء الكوخ ١٨ وهم يتدافعون ، واحس نفسه وحيدا ، ووضع يده على مقبض الباب . كان ينفتح ، وكان فيكاريوس يبسم لي ، وهو جالس قرب الموقد . ماعساه يريد مني في الموعد المضروب ؟ على اي حال سيكون من الاحتراس بحيث لن يذهب اليه . وشد على المقبض في يده ، ولم يدخل : كان يعلم ان الكوخ خال . واحس بيد تلامسه من الخلف :

ـ برونيه !

وكان توسو ، بصحبة بنين .

ـ ماذا تريدان ؟

وكان توسو ممتقعا ، ولم تكن عيناه تريان، وكان يبحث عن صوته في جوف حلقه . وكان بنين خلفه مستديرا نصف استدارة ، كأنه متاهب للفرار . ووجد توسو صوته اخيرا :

ـ نود ان نتحدث اليك ، نحن الاثنين .

فاستند برونيه الى الباب المغلق :

ـ الي انا ؟

ـ نعم ، اليك .

فقطب برونيه حاجبه :

ـ بصدد اي شيء ؟

ـ بصدد كل شيء .

ودفع برونيه الباب بظهره ، فطقطق .وسمع صوت بنين الفحمي الاجش ، ينكلم من غير ان ينظر اليه :

ـ نود ان نفهم .

فقال برونيه بضحكة شاتمة :

ـ نفهم ! نفهم ! اتتصوران ذلك !

ونظر اليهما بلا صداقة : ولم يدر ان كان عاتبا عليهما لانهما قد جاءا يطالبانه بتقديم حساب ، او لانهما قد جاءا متأخرين الى هذا الحد ، او لانهما قد جاءا وحدهما .

ـ توجها الى شاليه !

ثم استدرك فبسم لهما بسمة طفولية :

ـ اما انا ، فاني اتخلى : هناك عمل كثير جدا .

فقال توسو في تصبر :

ـ بل نريد ان نتحدث اليك انت ، أليس لديك خمس دقائق ؟

ـ خمس دقائق ! لو كنت اجمع كل « الخمسات دقائق » التي تطلب مني في النهار ، لما بقي لدي وقت لاهتم بطعامكم . انني احيل الجميع على شاليه : فلقد تقاسمنا العمل .

وتكلم بنين وهو ينظر الى طرف حذائه :

ـ لا حاجة بي الى ان اطلب شيئا منه ، هو شاليه ، انه لايحرم نفسه من الحديث ،وبوسعي ان اسرد لك مسبقا اجوبته .

ـ وانا سأقدم لكم الاجوبة نفسها .

ـ اذا انت قدمتها ، فقد نصدقها .

وتردد برونيه ، أيرفض ؟ سيبدو ذلك مريبا ، والتفتا اليه في وقت واحد ، وعليهما هيئة المكر والمطالبة نفسها ، وقال برونيه :

ـ انني مصغ اليكما .

فاتسعت عيونهما ، وألقيا حولهما نظرات شاردة ، والتزما الصمت ، واحمر برونيه غضبا، ففتح الباب بوحشية ، واولاهما ظهره ثم دخل بخطى ثقيلة . وانفلق الباب خلفه على مهل. واقترب من الموقد ، والتفت ، ولكنه لم يدعهما الى الجلوس .

ـ ماذا تريدان ؟

فاقترب توسو خطوة ، وتراجع برونيه ، لا سبيل الى الضلوع ، وبالطبع ،قال توسو بصوت منخفض :

ـ يبدو على شاليه انه يقول بان الاتحاد السوفياتي لن يدخل الحرب .

فسأل برونيه بصوت مرتفع واضح :

ـ واذن ؟ ما الذي يزعجكم ؟ ألم تتعلموا ان بلاد العمال لن ينساق ابدا للدخول في نزاع استعماري ؟

وصمتا ، ثم تبادلا نظرات خفية ليتشجعا . وفجأة رفع بنين رأسه ونظر الى برونيه نظرة رجل لرجل :

ـ ليس هذا ماكنت تقوله .

وكانت يدا برونيه ترتجفان ، فدسهما في جيبيه ، وقال :

ـ كنت مخطئا .

ـ وما ادراك انك كنت انت المخطيء ؟

ـ لقد كانت لشاليه اتصالات .

ـ هو الذي يقول ذلك .

فانفجر برونيه ضاحكا :

ـ هل تتصورون انه مباع للنازيين ؟

وتقدم خطوة فوضع يديه على كتفي توسو، واتخذ صوته الملمح الخشن :

ـ حين دخل شاليه في الحزب الشيوعي ، كنت يا عزيزي ماتزال ترتدي اللباس القصير . فلا تكونا احمقين: فانكما اذا اعتدتما على وصف المسؤولين بانهم مباعون كلما اختلفتما معهم في الرأي فسوف ينتهي بكما الامر الى ان تقولا لي ان الاب ستالين عميل لهتلر .

ولدى الكلمات الاخيرة ، ارسل ضحكته المعدية وهو ينظر الى توسو في عينيه ، ولم يضحك توسو . وساد صمت ، ثم سمع برونيه صوت بنين الهادىء المتحدي :

ـ انه مع ذلك لطريف ان تكون قد اخطأت الى هذا الحد .

فقال برونيه بلهجة خفيفة :

ـ هذه امور تحدث .

قال توسو : ـ انك انت ايضا مسؤول . انت ايضا كنت في الحزب حين كنت لاازال ارتدي اللباس القصير . واذن ؟ ايكما نصدق ؟

فصاح برونيه : ـ ولكني اقول لكما اننا متفقان .

وصمتا . انهما لايصدقانه . ولن يصدقاه ابدا ، واخذت الحواجز تدور امام عيني برونيه ، كان جميع الرفاق هناك ، وكان جميع الرفاق ينظرون اليه ، يجب ان يتكلم ليثجب الفوضى ومد يديه الراعشتين ، ودفع راحتيه الى امام واعلن صراحة :

ـ لقد اخطأت لانني كنت اظنني خبيثا ولانني اردت ان اقرر وحدي ، على أساس معلومات غير صحيحة ، لقد اخطأت لاني استسلمت لغريزة « وطنجية » قديمة ورجعية .

وصمت ، مرهقا ، وكانت عيناه ، تحت حاجبيه المقطبين ، تتنقلان من احدهما الى الاخر وتضطربان بالحقد : كان يود لو ينتزع اذنيهما . ولكن الوجهين ظلا شاحبين عابسين: انهما لم يسجلا تصريحه ، بل هما لم يستمعا اليه ، لقد تلاشت الكلمات في الاجواء ، وهدأ برونيه : لقد أذللت نفسي من اجل لاشيء .

وقال بنين : ـ اذا كان الاتحاد السوفياتي يناصر السلام ، فلماذا تراه قد قذف بنا في الحرب ؟

فانتفض برونيه ونظر اليهما في قسوة وقال:

ـ حذار يابنين : انك تعرض نفسك للخطر، وساقول لك اين عثرت على حجتك : في القمامة ، لقد سمعتها مئة مرة من فم الفاشيين الفرنسيين ، ولكنها المرة الاولى التي اسمع فيها رفيقا يرددها .

قال بنين : ـ ليست هذه حجة ، وانما هو سؤال .

ـ اذن هذا هو جوابي : لقد كان مشروع الديمقراطيات البورجوازية ان تقذف الالمان ضد الاتحاد السوفياتي ، ولكن ستالين قطع عليها الطريق .

وتبادل بنين وتوسو النظر ، وكان على شفاههما استياء ، وقال بنين :

ـ نعم ، لقد حدثنا شاليه بهذا .

قال برونيه : ـ اما الحرب ، فكيف تستطيعون ان تتمنوا استمرارها ؟ ان الجنود الالمان عمال وفلاحون . فهل تريدون ان يقاتل العمال السوفيات عمالا وفلاحين لمصلحة اصحاب مصارف لندن ؟

وصمتا ، مخدوعين اكثر منهما مقتنعين ، سوف يعودان مشفقين الى كوخهما ، وسط رفاقهما، فيرتميان على سريرهما، ويقوم اللغط والضجيج في رأسيهما حتى المساء ، ثم لاتكون لاحدهما الجرأة على النظر الى الاخر ،وسيردد كل منهما لنفسه وحدها : انني لا افهم ، وانقبضت حنجرة برونيه ، انهما طفلان ،وتجب مساعدتهما ، وقام بخطوة الى الامام ، فرأياه يقترب ، ففهما واشتعلت عيناهما المظلمتان للرة الاولى ، وتوقف : ان « الحزب » هو أسرتهما ، وليس لهما في الدنيا الا الحزب ، وخير طريقة لمساعدتهما هي ان اصمت . وانطفأت عيناهما ، وبسم لهما :

ـ لاتفكر اكثر مما ينبغي ، ياصاحبي ، ولا تجهدا كثيرا للفهم : اننا لانعرف شيئا ، وليست هذه اول مرة يبدو فيها الحزب الشيوعي وكأنه على خطأ . ثم كان يظهر بعد ذلك انه كان دائما على صواب . ان الحزب الشيوعي هو حزبكم فهو موجود من اجلكم وبكم ، وليس له من هدف الا تحرير العمال ، وليس له من ارادة اخرى غير ارادة الجماهير ، ولهذا ، فهو لايخطيء ابدا . ابدا ! ابدا ! ركزوا ذلك في الرأس . انه لايمكن ان يخطيء .

وكان خجلا من هذا الصوت العنيف والضعيف ، وكان يود لو يرد لهما البراءة،وكان يبحث عن قوته القديمة . ولكن الباب فتح ، ودلف شاليه الى الغرفة لاهثا . فابتعد توسو وبنين بحيوية ، وقام برونيه بخطوة الى الوراء وهو يحتقر مظهرهما ، مظهر التلامذة يؤخذون على حين غرة في الخطأ ، وابتسم الجميع وابتسم برونيه وفكر : « لقد ركض ، فلا بد ان هناك من قد ذهب ليبلغه » .

وقال شاليه : ـ مرحبا ! ايها الرفاق .

فقالوا : ـ مرحبا .

وسأل توسو : ـ كيف حال سنك ؟

فابتسم شاليه ، فبدا وجهه من جص : ان الامر لم يتم بيسر .

وقال بجذل : ـ انتهت ، لقد قلعت !

وتضايق برونيه لشعوره بان يديه لزجتان، ولم يكف شاليه عن الابتسام ، وظلت عيناه تتنقلان بينهم ، وتحدث في شيء من المشقة :

ـ احس ان فمي من خشب ، واضاف لقد جئتما اذن للقائي ؟

قال توسو : ـ كنا مارين .

ـ الم تكونا تعرفان اني كنت لدى طبيب الاسنان ؟

ـ كنا نظن انك قد عدت .

قال : ـ هانذا ، أكان لديكما شيء تسألانني عنه ؟

قال بنين : ـ سؤالان صغيران او ثلاثة . عن درسك ، غير ان ذلك ليس مستعجلا .

وقال توسو : ـ سنعود مرة اخرى ، فنحن لانريد ازعاجك الان : انك بحاجة الى ان تترك هادئا .

قال شاليه: ـ متى شئتما . فانا هنا دائما كما تعلمان . ومن سوء الحظ انكما قد أتيتما في اليوم الوحيد الذي تغيبت فيه .

وخرجا متقهقرين ، وهما يبتسمان ويحييان وانغلق الباب ، واخرج برونيه يديه من جيبيه فمسحهما بقماش سرواله ، وها هما الان تتدليان بازاء فخذيه ، ونزع شاليه معطفه وجلس ، وعاد له نفسه والوانه رويدا رويدا، وقال :

ـ انهما لطيفان ، هذان الطفلان ، انني أحبهما كثيرا . أكانا هنا منذ وقت طويل ؟

ـ خمس دقائق .

وتقدم برونيه خطوة واضاف :

ـ وانما جاءا ليرياني انا .

قال شاليه : ـ هذا مافكرت به،انهما شديدا الثقة بك .

قال برونيه : ـ لقد طرحا علي اسئلة عن « الحزب » .

ـ وبم أجبتهما ؟

ـ بما كنت ستجيبهما به انت نفسك .

ونهض شاليه فاقترب من برونيه وقلب رأسه لينظر اليه . وكان يصعد من فمه البائسرائحة صيدلية .

ـ لقد قمت هذا الصباح بتوزيع الغذاء في الاكواخ ، اليس كذلك ؟

فأومأ برونيه برأسه ، وقال شاليه :

ـ يالبرونيه الملعون !

واخذه من مرفقيه ، وحاول ان يهزه بود . ولكن برونيه تثاقل ، فلم يستطع شاليه ان يحركه ، وانفتحت يدا شاليه ثم سقطتا ،ولكن بسمته الودية لم تمح .

ـ انت بكل تأكيد لاتفعل ذلك عن قصد ، ولكنك لا تتصور كم يمكنك ان تزعجني في عملي .

فلم يجب برونيه ، كان يعرف كلمة كلمة ما سوف يقوله شاليه ، ولكن كان ضروريا لكل كلمة ان تقال . وسأل شاليه :

ـ اية سلطة يمكن ان تكون لي على الرفاق اذا كانوا بحاجة الى اذنك كي يصدقوني ؟

وهز برونيه كتفيه ، وقال بلا اقتناع :

ـ أي ضير في ذلك ، مادمنا متفقين ؟

قال شاليه : ـ الحقيقة انهم لايفكرون باننا على اتفاق ، انك تردد عليهم ما اقول ، ولكنهم لايستطيعون ان ينسوا انك كنت قد قلت العكس فكيف تريدني ان اعمل في هذه الظروف ؟

فسأل برونيه : ـ وماذا استطيع ان افعل اكثر من ذلك ؟ هاقد مضى علي شهر وانا اعمل على محو نفسي .

فضحك شاليه من قلبه :

ـ محو نفسك ؟ ياعزيزي برونيه ، ان شخصا مثلك « لايستطيع » ان يمحو نفسه ، ان وزنك اثقل مما ينبغي ، وكذلك حجمك ، واذا لم تقل شيئا ، ولم تظهر ، فذلك لايزيدك الا خطورة ، انك تستقطب مقاومته ، فيحدث كل شيء كما لو انك كنت على رأس المعارضة .

فضحك برونيه بلا مرح :

ـ المعارض بالرغم عنه !

ـ تماما ، حسبك ان تكون موجودا ، ويكفي ان يعرفوا ، اذ يمرون في الرواق ، انك خلف الباب ، وبعد ذلك ، بوسعك ان تصمت : ان صوتك موضوعيا ، يغطي صوتي .

قال برونيه على مهل :

ـ انك لاتستطيع ،على أي حال ، ان تقتلني.

فضحك شاليه من غير ان يرفع عينيه :

ـ ان ذلك لن يسوي شيئا ، بل على العكس.

تلك هي اللحظة المناسبة ، لم يكن برونيه على وهم ، فقد كان يعلم انه مهزوم مقدما ، ولكن كان ثمة توسو وبنين وجميع الاخرين:فيجب القيام بجهد اخير ، ووضع يديه على كتفي شاليه وقال بالتمهل نفسه :

ـ انك انت المسؤول بعض الشيء عن هذا كله .

فرفع شاليه راسه ولكنه لم يقل شيئا . واستطرد برونيه :

ـ كان خطأك في ان تتصل بهم انتشخصيا. انك ممتاز لتنظيم الملاكات ، اما مع رفاقنا الصغار ، فانك لم تعرف ان تختار الكلمات .

وانهدر كل شيء : لقد اشتعل في عيني شاليه غضب مثلج ، انه يحسدني ، وتركبرونيه يديه تنزلقان على ذراعي شاليه ، ولكنه تابع، اراحة لضميره :

ـ كنت املكهم بيدي ، فلو انك بقيت في الظل ، لكنت اعطيت التوجيهات ، وكنت انا قمت بالعمل ، بحيث لايكون امامهم الا شخص واحد ، وبحيث كان يمكننا ان نجتاز المنعطف من غير ان يشعروا .

فانطفأت عينا شاليه ، وابتسم فمه . وقال برونيه :

ـ وبالنسبة اليهم ايضا ، كان الامريكيون اقل قسوة .

فلم يجب شاليه ، ونظر برونيه الى هذا الوجه الميت واضاف بلا امل :

ـ لعل الاوان لم يفت بعد .

فقال شاليه بقسوة :

ـ لم يكن ثمة قط من اوان ، انك تجسد انحرافا ويجب ان تزول معه ، ذلك قانون لا هوادة فيه . ينبغي ان تفهم انك احترقت ؟ فاذا تخفيت ، احتفظت بسلطة يؤسف لها . ولكنك لو تكلمت ، لو كنت انت تقول لهم ماقوله لهم ، لسخروا بك .

ونظر برونيه الى هذا الرجل الصغير الطيب في شيء من الذهول : ضربة واحدة فأسحقه ، وكلمة واحدة فأهدم حظوته ، غير اني قائم هنا مشلولا ، لقد وقعت على خسراني وتركته يتصرف ، فنصفي ضائع مع شاليه . وسأل ، من غير ان يرفع صوته :

ـ اذن ، ماذا ينبغي علي ان افعل ؟

فلم يجب شاليه على التو ، بل ذهب يجلس ووضع ساعديه على فخذيه ، وضم يديه ،وراح يحلم ، وكان نادرا ان يرى شاليه وهو يحلم. وبعد لحظة ، قال في الحلم :

ـ لو كنت في امكنة اخرى ورفاق اخرين، لامكنك ان تستأنف نشاطك .

فنظر اليه برونيه في صمت . وكان شاليه يستمع الى اصوات داخلية ، ثم استيقظ فجأة :

ـ في كل يوم تقريبا ، ينضم افراد الى فرق الكومندوس .. .

قال برونيه : ـ فهمت .

وابتسم :

ـ لن انضم الى الكوماندوس ، فلا تعتمد علي في ذلك ، اريد ان اشتغل ، ولا اريد ان آسن وسط عشرين فلاحا سيكونون تحت رحمة الخوارنة .

فهز شاليه كتفيه :

ـ افعل مابدا لك .

وصمتا ، واخذا يحلمان ، احدهما وهو واقف ، والاخر جالس ، بأفضل طريقة لحذف برونيه وكان في الرواق افراد يمرون ويعودون وينظرون الى الباب المغلق وهم يفكرون : انه هنا ، لقد اذعنت واحتج برونيه ، اني اختبيء وبرونيه يبهر العيون .

ـ اذا ارسلتني الى الكوماندوس ، فسيعتقد الرفاق انك تنفيني .

فرماه شاليه بنظرة متبرمة :

ـ هذا تماما ماقلته لنفسي .

ـ واذا فررت ؟

ـ هذا أسوأ ماتستطيع ان تفعل : سيظنون انك ذهبت تحتج في باريس .

وصمت برونيه ، وحك كعبه الايمن بالارض، وخفض عينيه وهو يتنفس ويفكر : انني اسبب الازعاج . وعادت يداه تعرقان ، سأسبب الازعاج في كل مكان ، هنا وفي باريس ، انني مروج الفوضى . وكان يكره الفوضى ، واللانظام ، والتمرد الفردي ، انني قشة في القصدير ، حبة رمل في العجلات .

ـ من الممكن جمع الرفاق : فتوجه الي انتقاداتك ، واعترف بالوقائع امام الجميع .

فرفع شاليه رأسه بحيوية :

ـ اتفعل ذلك ؟

ـ سأفعل اي شيء ، لاتمكن من استئناف عملي .

فظل شاليه غير مصدق ، وفجأة فاجأ برونيه في صميم نفسه اضطرابا غامضا . وكان

يعرف ذلك ، ويعرف انه خوف . كان الكلام واجبا على الفور ، وفي سرعة كبيرة . وقال بين اسنانه المنقبضة :

ـ سيكون التصويت ضروريا ، فانهم حين يدينونني بانفسهم ...

قال شاليه ضاحكا :

ـ ليس ثمة من ادانة ، ولا من ماساة : فان ذلك لن يفيد الا في تعكيرهم . اما انا فاواجه الامر كما يلي : ليس من شيء رسمي، بل مناقشة ودية ، بين رفاق ، ثم تنهض اخر الامر ..

لقد فات الاوان ، ان الصاروخ يصفر ويدوم وينفجر فيضيء الليل : ان الاتحاد السوفياتي « سيهزم » . انه لن يتجنب الحرب ، بل سيدخلها وحده ، بلا حلفاء ، وليس من قيمة لجيشه ، ولسوف يندحر ، ورأى عيني شاليه، ممتلئتين بالذهول : أتراني قد تكلمت ؟ وتمالك نفسه ، وساد صمت طويل . ثم قهقه برونيه ، وقال في مشقة :

ـ لقد اردت ان امتحنك .

فلم يقل شاليه شيئا ، وكان ممتقعا . وقال برونيه :

ـ انني لن اقوم باعتراف علني ، يا صديقي العزيز ، فان لكل شيء حدودا .

فقال شاليه على مهل : انني لم اطلب منك شيئا .

ـ بكل تاكيد لم تطلب مني شيئا ، فانك اشد خبثا من ان تفعل ذلك .

وابتسم شاليه ، فنظر برونيه اليه في فضول : كيف تراه سيتصرف ليفقدني ؟

وفجأة نهض شاليه ، فتناول معطفه تحت ذراعه وخرج من غير ان يقول كلمة . فخرج برونيه في اعقابه ، وغطس في الشمس . سوف يهزم . سيكونون قد افسدوا معنويات الرفاق ، وسوف يهزم مع ذلك . ونظر في اعماقه الى هذه الفكرة العنيدة التي تعود مئة مرة في اليوم ، هذه الكرة الصغيرة ، الزجاجية والمائعة ، الملتصقة بالارض الخشبية، بلا دفاع : ان بالامكان سحقها بضربة كعب ، فان الفكرة شيء هش ، شفاف ، ذائب ، خاص، مشارك في الذنب ، ولا يبدو انه يوجد حقا : ومن « اجل هذا » أخسر نفسي ! أتراني افكر حقا بان الاتحاد السوفياتي سيندحر ؟ وحتى لو فكرت في ذلك ، فأية اهمية لهذا ؟ ان فكرة ما في الراس هي صفر ، نزيف داخلي ، ولا علاقة لها البتة بالحقيقة . اما الحقيقة فهي شيء عملي ، شيء يبرهن عليه بالعمل ، فلو كان على حق ، فان ذلك سيعرف ، وبامكانه ان يغير مجرى الامور ، وان يؤثر على الحزب ، انني لا استطيع شيئا ، فانا اذن على خطأ . وحث خطاه ، وطمأن نفسه : هذا كله ليس ذا خطورة كبيرة . لقد خطرت في رأسه افكار كثيرة ، كجميع الناس ، وكانت تلك تعفنات، وافرازات من نشاطه العقلي ، غير انه لم يكن يكترث لها ، وكان يتركها تتحول الى فطر في الكهف .واذن ، فسوف يعيدها الى مكانها وينتظم كل شيء : سوف يظل في الخط ، وسوف يحافظ على النظام ، ويحمل افكاره في داخله من غير ان ينبس عنها بكلمة ، كما لو انها مرض مخجل . ان الامر لن يذهب الى ابعد من هذا ، ولا يمكن له ان يذهب الى ابعد من هذا ، ان المرء لايفكر ضد « الحزب » ، فالافكار كلمات والكلمات ملك « الحزب » و « الحزب » هو الذي يحددها ، و «الحزب» هو الذي يعيرها ، ف « الحقيقة » و « الحزب » ليسا الا شيئا واحدا . وكان يسير مسرورا ، انه يتغيب : اكواخ ، وجوه ، السماء . كانت السماء تسيل في عينيه . وخلفه ، كانت الكلمات المنسية تتجمع وتثرثر من تلقاء نفسها: « ما دام ذلك لا اهمية له ، ما دام غير ناجع، فلماذا لا تمضي بفكرتك حتى نهايتها ؟ » وتوقف فجأة ، وهو يحس انه عجيب . لا بد ان الامر كذلك لدى الاشخاص الذين يظنون انفسهم نابوليون : انهم يتحاكمون ويدللون لانفسهم انهم ليسوا ، ولا يمكن ان يكونوا الامبراطور. وما ان ينتهوا ، حتى يولد صوت خلف ظهورهم : « مرحبا ، نابوليون ! » والتفت مرتدا الى فكرته ، وهو يريد ان ينظر اليها مواجهة : واذا هزم الاتحاد السوفياتي...

وخرق السقف ، وانسل في الظلام ، وانفجر ان « الحزب » تحته ، جليد حي يغطي الكرة ، لم يسبق لي قط ان رأيته ، فقد كنت في داخله ، وطاف فوق هذا الجليد البائد : ان « الحزب » يمكن ان يموت . وكان مقرورا ، وكان يدور : اذا كان « الحزب » على حق ، فانا اشد توحدا من مجنون ، اما اذا كان على خطا ، فان « جميع الرجال » متوحدون ، والعالم هالك ، ونهض الخوف ، فاخذ يدوم ، وتوقف مبهور الانفاس واستند الى حاجز كوخ : ما الذي حدث لي ؟

ـ كنت اتساءل عما اذا كنت ستاتي .

انه فيكاريوس . وقال برونيه :

ـ انت ترى : فقد جئت .

ولم يتصافحا . وكان فيكاريوس قد ارسل لحيته ، فنبتت رمادية . وعلق نظرة محمومة على جبين برونيه ، فوق الحاجبين تماما . وصرف برونيه راسه : كان ينفر اشد النفور من المرضى ، وشرد نظره بين الاكواخ، ففاجا في البعيد التماع نور بين جفنين نصف مغمضين ، ثم ظهرا يفر : موريس .« انه يتجسس علي ، وهو الذي ذهب يبلغ شاليه في المشفى » . واستقام برونيه ، كان ذلك يبعث فيه المرح والانتعاش . والتفت الى فيكاريوس :

ـ ما الذي تريده مني ؟

قال فيكاريوس : ـ اريد ان اهرب .

فانتفض برونيه : سوف يموت في الثلج .

ـ في ابان الشتاء ؟ لماذا لا تنتظر الربيع؟

فابتسم فيكاريوس ، ورأى برونيه هذه البسمة ، فاشاح بعينيه .

ـ انني مستعجل

قال برونيه : ـ اذن ما عليك الا ان تختفي.

فانزلق الصوت الثقيل المظلم بازاء رقبته :

ـ انني بحاجة الى لباس مدني .

فجهد برونيه في رفع راسه ، واجاب في ضيق :

ـ ان في المعسكر منظمة تساعد الافراد على الفرار . فاتصل بها .

فسأله فيكاريوس : ـ هل تعرفها، انت ؟

ـ لا : بل سمعت من يتحدث عنها .

ـ الجميع قد سمعوا من يتحدث عنها ، ولكن ليس ثمة من يعرف عنها شيئا. الحقيقة هي انها غير موجودة .

واعاد نظره الحبري على حاجبي برونيه ، وكان يبدو كأعمى ، وعلى مضض دفع صوته الخشن المائع خارج فمه :

ـ اسف ، ليس ثمة غيرك من يستطيع مساعدتي .. ان لك رجالا في كل مكان . ومانويل في المستودع ، وهناك اثواب بالالوف

فسأله برونيه : ـ لماذا تريد ان تهرب ؟

فرفع فيكاريوس يده وبسم لاظافره . وقال ، كما لو انه كان يتحدث الى نفسه :

ـ اريد ان ادافع عن نفسي .

فساله برونيه في تعب :

ـ ضد من ؟ وامام من ؟ لقد تحول « الحزب » الى تيار هواء .

فضحك فيكاريوس ضحكة منخفضة قاسية وقال :

ـ سنرى ! سنرى جيدا !

فاحس برونيه بانه متعب مصالح : سوف يموت في الثلج ، وانا افضل بالرغم من كل شيء ان اراه في المعسكر .

ـ ماذا يؤثر عليك ما قد نفكر به حولك ؟ لقد تركتنا منذ اكثر من عام : فدعنا اذن وشاننا .

قال فيكاريوس : ـ ان زوجتي ما تزال عندكم .

فخفض برونيه راسه ولم يجب . وبعد لحظة ، اضاف فيكاريوس :

ـ ان اكبر اطفالي في العاشرة : « فالحزب» في نظره هو الرب الرحيم . وقد قام هناك بلا ريب من قال له انه كان ابنا لخائن .

وقهقه على مهل ، وهو ينظر الى اصابعه :

ـ وكبدء للحياة ، ليس هذا تماما ما كنت اتمناه له .

وساله برونيه في غيظ :

ـ ولماذا توجهت لي انا بالذات ؟

ـ ولمن تريدني ان اتوجه ؟

فرفع برونيه راسه ، ودس قبضتيه في جيبيه :

ـ لا تعتمد علي .

فلم يجب فيكاريوس : كان ينتظر . وانتظر

برونيه هو ايضا ، ثم فقد صبره وغطس عينيه في هاتين العينين العمياوين ، وقال :
ـ انك ضدنا .
ـ لا معكم ولا ضدكم . كل ما في الامر ، انني اريد ان ادافع عن نفسي .
ـ انت ضدنا مهما فعلت .
ليس من جواب . واستطرد برونيه :
ـ ثم ان هذا ليس اوان اعادة النظر في حالتك . لقد قدمت حججا للعدو ، وانت وحدك شعار : الشيوعي الضاري الذي انتهى الامر بالحزب ، رغم كل شيء ، الى اثارة اشمئزازه . ان الرفاق لا يملكون ثقة مفرطة : فحتى لو كنت بريئا جزئيا ، فانهم بحاجة الى ان تكون مذنبا مئة بالمئة . وفيما بعد ، سنرى .
ـ فيما بعد !
وخفض فيكاريوس نظره ، فتلقاه برونيه في صميم عينيه :
ـ لا ، يا برونيه ، ليس انت !
وتبادلا النظر . انهما لن يخفضا عينيهما ، لا هذا ولا ذاك .
ـ لست انت ، انت الوحيد الذي لا يحق له .
ـ لماذا ؟
ـ لانك تعرف جيدا اني لست خائنا : فاذا رفضت مساعدتي ، فانك تمنع الرفاق عن قصد من ان يعرفوا الحقيقة .
« الحقيقة هي ان الحزب يقرر . الحقيقة والحزب شيء واحد . اذا كان الحزب على خطا ، فجميع الرجال متوحدون . » جميع الرجال متوحدون ، اذا لم تكن خائنا .
وقال برونيه بجفاء : ـ لقد تخليت عنا حين كنا في الخراء ، وحاولت ان تطبخ « الحزب » في جريدتك . وهذا لا يقل اجراما عما لو كنت قد بعت نفسك للحاكم .
قال فيكاريوس بهدوء : ـ ربما لم يكن ذلك اقل اجراما ، ولكن ليست هي الجريمة نفسها .
ـ ليس لدي متسع من الوقت لاسجل الفروق .

وظلا يتبادلان النظر . وفجاة دوم الصاروخ: سوف يهزم . ونظر برونيه الى وجه فيكاريوس المتقلص : وما كان يرى ، انما هو وجهه بالذات . سوف يندحر ، جميع الرجال متوحدون ، فيكاريوس وبرونيه متوحدان ، وهما متشابهان . انه ، في اخر المطاف ، اذا اراد ان يموت ، فهذا شانه .
ـ ستحصل على ثوبك .
فظل الوجه الثقيل لامعبرا . وقال فيكاريوس ببساطة :
ـ ويلزمني ايضا بسكوت .
ـ ستحصل على بسكوت . ـ وفكر برونيه ـ وساحاول ان احصل لك على بوصلة .
واضاءت عينا فيكاريوس للمرة الاولى :
ـ بوصلة ؟ سيكون هذا هائلا .
قال برونيه : ـ انني لا اعدك بشيء .
وانصرف احدهما عن الاخر في الوقت نفسه، وتنفس برونيه بعمق . لم يبق له الا ان يمضي . ولكنه بقي ، وهو يتساءل لماذا يذهب فيكاريوس . وسمع فجاة صوتا حييا حزينا :
ـ لقد شخت .
ونظر برونيه الى لحية فيكاريوس الرمادية ولم يجب . وساله فيكاريوس :
ـ كيف حال امورك ؟
ـ لا باس .
ـ والرفاق ؟ ما الذي قلته لهم عني ؟
ـ انك كنت مريضا ، وانني نقلتك الى كوخ تيبو لان الجو فيها اقل بردا .
ـ حسنا جدا .
وهز راسه وقال ملاحظا بصوت محايد :
ـ لم يات احد لرؤيتي ....
ـ وهذا حسن ايضا .
ـ نعم ، طبعا .
ـ الم يكن لديك شيء اخر تقوله لي ؟؟
ـ لاشيء .
ـ حسنا .
ومضى ، وسار ، وانعطف في الثلج ، ورافقته عينا فيكاريوس المحمومتان تتحركان مع عينيه . واقفل على نفسه ، وانطفات العينان : سواء امات ام لا ، فهو هالك ، ولقد كان عامل المطبعة ايضا هالكا ، ان للحزب نهاياته ، وهذا طبيعي . وشد على قبضتيه ، وارتد مستديرا : لن يصنع احدا مني نهاية .
ومشى : مناقشة ودية ، ويوجه لي شاليه انتقاداته بود ، واذ ذاك ، سانهض امام الجميع ... وعلى عتبة الكوخ ، كان مولو يدخن في التذاذ سيكارة ذات عقب مذهب . وتوقف برونيه :
ـ ما هذا ؟
ـ سيكارة .
ـ ذات عقب مذهب ؟ ان المستودع لا يبيع مثلها .
فاصبح وجه مولو قرمزي اللون :
ـ انه عقب سيكارة . وقد التقطته امام مركز القيادة .
قال برونيه : ـ انكم جميعا تثيرون اشمئزازي بهوسكم في التقاط الاعقاب سينتهي بكم الامر الى ان تصابوا بالجدري .
وجعل مولو يدخن بسرعة ، وقد احمر وجهه كله ، واغمض عينيه نصف اغماضة ، وادخل راسه في كتفيه . وفكر برونيه :«قبل الان » لكان يرمي سيكارته .
هل الرفاق في العمل ؟
ـ لم ياتوا بعد : فهم في الكوخ مع شاليه .
قال برونيه : ـ اذهب فاستدع لي مانويل ، بسرعة . وحاول الا يعرف احد شيئا . قال مولو باهتمام : ـ مفهوم .
وانطلق . وفي الطرف الاخر من الممر ، انفتح باب فخرج منه سوناك وراسك على عجل. ولمحا برونيه فانطفات عيناهما ، وتوقفا ودسا يديهما في جيوبهما ، ثم مضيا بخطورة لا مبالية ، وبسم لهما برونيه لدى مرورهما ، فرسم رأساهما انحناءتين خفيفتين . وابتعدا فاتبعهما برونيه نظرا شاردا وفكر : سوناك، كان من افضله . وجذبت يد كمه فالتفت : فاذا هو توسو . وقال برونيه منزعجا :
ـ هذا انت ايضا ! ماذا تريد ؟
وكان يبدو على توسو مظهر غريب . وسال:
ـ شنايدر ، اصحيح انه يدعى فيكاريوس ؟
فساله برونيه : ـ من قال لك ذلك ؟
ـ شاليه .
ـ متى ؟
ـ منذ لحظات .
ونظر الى برونيه في حذر ، وردد :
ـ هل هذا صحيح ؟
ـ نعم .
ـ اصحيح انه ترك « الحزب » في ايلول ٣٩ ؟
ـ نعم .
ـ اصحيح انه كان يقبض من حاكم الجزائر ؟
ـ لا
ـ ان شاليه اذن مخطيء ؟
ـ انه مخطيء .
ـ كنت اظن انه لم يكن يخطيء قط .
ـ انه مخطيء في هذا .
ـ هو يقول ان « الحزب » قد اصدر تحذيرا . هل هذا صحيح ؟
ـ نعم .
ـ ان « الحزب » اذن مخطيء ؟
قال برونيه : ـ لقد ابلغ الرفاق اخبارا مغلوطة . وليس ذاك بالامر الخطير .
فهز توسو راسه :
ـ ولكن بالنسبة لفيكاريوس خطير
فلم يجب برونيه : وقال توسو بعدم اكتراث :
ـ كنت انت تحبه كثيرا ، فيكاريوس ، لقد كان رفيقك ، من قبل .
قال برونيه : ـ نعم ، من قبل .
ـ بينما لا يهمك الان ان يحطموا راسه ؟؟
فقبض برونيه على ذراعه :
ـ من الذي يريد ان يحطم راسه ؟
ـ الم تر راسك ذاهبا مع سوناك ؟ كانا ذاهبين اليه .
ـ ايكون شاليه هو الذي اصدر اليهما الامر في ذلك ؟
ـ انه لم يصدر امرا . لقد جاء مع موريس، ثم روى قصته الصغيرة .

ـ اية قصة ؟

ـ قصة ان فيكاريوس كان خائفا ، وانه كان قد خدعك ، وانك لم تكن تتركه ، وان الامر من الخطورة بمكان ، واننا سنستيقظ يوما ، وقد وشي بنا جميعا ،

ـ وماذا كان يقول الرفاق ؟

ـ لم يكونوا يقولون شيئا ، بل كانوا يصغون ، وهنا نهض سوناك وراسك ، وهذا كل شيء .

ـ ولم يقل لهما شاليه شيئا ؟

ـ بل هو لم يتظاهر بانه رآهما .

قال برونيه : ـ حسنا . شكرا .

فامسك به توسو :

ـ الا تريد ان اصحبك ؟

قال برونيه : ـ حذار من ذلك خصوصا . ان هذا شرك ، وهو لم ينصب الا لي .

وانطلق راكضا ، ولم يكن ثمة احد خلف الكوخ ١٨ ، وتوقف مستعيدا انفاسه ثم عاد يركض . كان يعدو الى هلاكه ، ولم يسبق له قط ان عدا بمثل هذه السرعة . وامام كوخ تيبو ، رآى فيكاريوس مع سوناك وراسك . وكانوا في الشمس ، سودا تمام السواد وسط الشارع الخالي ، وكان راسك يتكلم ، وفيكاريوس صامت . ثم تقارب سوناك وراسك ، وجعلا يتكلمان معا ، فوضع فيكاريوس يديه في جيبيه ، ولم يجب بشيء .

وازداد برونيه سرعة في ركضه ، ورفع راسك ذراعه فضرب فيكاريوس على فمه . واخرج فيكاروس يدا فمسح بها فمه ، واراد راسك ان يضرب مرة اخرى ، فقبض فيكاريوس على معصمه ، وارتمى سوناك الى امام وضرب بدوره ، فاشاح فيكاريوس براسه فادركته قبضة سوناك خلف اذنه . كان صراع اشباح صينية لاصوت له ولا مظهر ، حتى انه لا يصدق . واقتحم برونيه المكان ، وبضربة من يده ، ارسل سوناك يصطدم بالكوخ . وكان فيكاريوس ينزف دما ، وكانت عينا راسك ترسلان الشرر . ورأى برونيه الدم والحقد ، وانفلق الشرك عليه ، واكتنفه الحقد ، وكان يؤمن به .

ـ ماذا تفعلان ، ايها الابلهان

وترك فيكاريوس ذراع راسك ، فانفتل راسك نحو برونيه وحدجه :

ـ اننا نقول له طريقتنا في التفكير .

ـ نعم ، وستقولانها للالمان اذا قدموا ، وستريانهم بطاقة « الحزب » دعما لذلك ؟ هيا ، كفى ، افرنقعا .

فلم يتحرك راسك ، بل كان ينظر الى برونيه نظرة مبهمة مقطبة . وعاد سوناك اليهم ببطء ، ولم يكن يظهر عليه انه خائف :

ـ قل لنا ، يا برونيه : اليس هذا خائفا ، هذا الرجل ؟

قال برونيه : ـ عودا الى كوخكما .

فاحمر سوناك ، ورفع صوته :

ـ اليس هو خائفا ؟ قل ! اتراك لا تدافع عن خائن ؟

فنظر اليه برونيه في عينيه وردد بهدوء :

ـ اقول لكما ان عودا : هذا امر .

فقهقه سوناك :

ـ ان اوامرك لا تسري بعد .

وقال راسك : ـ ليس لك من اوامر تصدرها الينا ، يابابا ، فلست انت بعد من يصدر لنا الاوامر .

ـ اهكذا ؟

وفكر برونيه : سيقع الضرب ، حركة واحدة وتتمزق خيوط العنكبوت التي تشله ممزقا كاملا ، وقال راسك بحزم هادىء :

ـ نعم ، يابرونيه ، انك لاتستطيع بعد ان تامرنا ، لقد انتهى ذلك .

قال برونيه : ـ ربما كان ذلك صحيحا ،ولكني استطيع ان ارسلك خمسة عشر يوما الى المستشفى ، هذا ، مازلت استطيع ان افعله .

وترددا ، وكان برونيه ينظر اليهما وهو بضحك نافد الصبر : من تراه منهما يريد انقاذ الكرامة والنطق بالكلام الذي لامجال لاصلاحه ؟ ولوى سوناك فمه وامتقع : كان يرتعش مما سوف يقوله ، سيكون اذن سوناك فليكن : كان هذا من افضله ، ان الشرك يعمل جيدا ، وقال سوناك :

ـ بمجرد انك في المؤامرة ..

وقذف برونيه قبضته وسحقها بفرح على عين سوناك اليمنى ، فتداعى سوناك للاسترخاء في ذراعي راسك الذي اخذ يترنح ، وكان برونيه ينظر اليهما باهتمام ، ثم ضرب مرة اخرى ، تماما في المكان نفسه ، وانفجرت قنطرة الحاجب لدى سوناك واخذت ترسل الدم ، وباعد برونيه ذراعيه وصحك : ان كومة الصحون في الارض ، لقد تحطم كل شيء ، وكل شيء قد انتهى . ومضى راسك وسوناك بخطى بطيئة ، احدهما يسند الاخر ، سيقدمان تقريرهما ، وسترتفع درجة الحرارة في الكوخ ، لقد نجح الشرك نجاحا كبيرا ، وفرك برونيه يديه ، ومسح فيكاريوس فمه ، وكانت شفتاه ترتجفان ، وخط من دم يلطخ لحيته الرمادية ، ونظر اليه برونيه في ذهول ، وفكر : انما من اجله فعلت هذا .

ـ هل تشكو الما ؟

ـ ليس الامر بذي بال .

ودلك المنديل ، وخشخشت اللحية ، وقال فيكاريوس :

ـ كنت قد وعدتني بالا تقول شيئا للرفاق .

فهز برونيه كتفيه ، وادار فيكاريوس نحوه عينين كبيرتين فارغتين ، وقال بلهجة اهتمام :

ـ انهم لم يكونوا يحبونني ، اليس كذلك ؟

ـ من ؟

ـ الجميع .

قال برونيه : ـ نعم ، لم يكونوا يحبونك .

فهز فيكاريوس راسه :

ـ سوف يجعلون حياتي شاقة .

قال برونيه : ـ ولكنك ذاهب عما قليل .

وكان فيكاريوس قد انفتل قليلا يتبع بعينيه سوناك وراسك ، فرأى برونيه طرف انفه وخده المشعر الذي كان يختفي . وقال فيكاريوس :

ـ الصداقة ، ينبغي على كل حال ان تكون ممكنة .

قال برونيه : ـ انها ممكنة بين عضوين في « الحزب » .

ـ شريطة ان يبقيا كلاهما في الخط .

وكان يتكلم بصوت بعيد ، من غير ان يلتفت:

ـ في وهران ، اقبل ثلاثة رفاق في العام الماضي لمقابلة زوجتي وبسطوا تحت نظرها ورقة ، وكانوا يريدون ان توقع عليها ، كانوا قد كتبوا فيها اني كنت قذارة ، وانها كانت تبرأ مني وتنكرني ، وقد رفضت ، طبعا ، وعند ذاك وصفوها بانها قذرة وهددوها ، وكانوا هم خير اصدقائي .

فلم يقل برونيه شيئا : كان يفرك بهدوء اصابع يده اليمنى ، ولا يفهم جيدا بعد ماقام به ، وقال فيكاريوس :

ـ ومع ذلك ، اذا كنا قد كافحنا هذاالكفاح كله ، واذا كنا مانزال نكافح ، أليس ذلك من اجل الصداقة « ايضا » ؟

وفكر برونيه : واذا ضربت سوناك ، واذا سقطت خافض الرأس في شرك شاليه ، الا تدري ان ذلك انما كان بدافع الصداقة ؟وكانت به رغبة لان يلامس كتفه ، او ان يشد على يده ، كانت به رغبة لان يبسم له حتى لاتكون حركته بلا جدوى تماما ، ولم يبتسم ، ولم يمد يده : فبينهما ، لن تكون ثمة صداقة ابدا .

وقال : ـ اجل ! لكي تكون ممكنة ذات يوم، بعدنا .

ـ بعدنا ، لماذا ؟ لماذا لاتكون اليوم ؟

فانفجر برونيه فجاة :

ـ اليوم ؟ مع مليار من العبيد ، والنار في اربعة اركان الكرة ؟ تريد صداقة ؟ تريد حبا ؟ تريد ان تكون انسانا ، على الفور ؟بهذه الاوضاع كلها ؟ اننا لسنا بشرا ، يا عزيزي ، لسنا بشرا بعد . اننا اجهاضات ، انصاف قطع ، انصاف حيوانات ، وقصارى مانستطيع ان نفعله ، هو ان نعمل حتى لايكون الذين سوف يأتون ، شبيهين بنا .

وخرج فيكاريوس من حلمه ، فنظر الى برونيه بتنبه ، وقال على مهل :

ـ نعم ، لقد ذقت ذلك ، انت ايضا .

فقهقه برونيه ، وسأل :

ـ انا ؟ لا ، وانما كنت اتحدث بصورة عامة .

فقال فيكاريوس بصوت حي وجذل :

ـ كفى ! كفى ! انني اعرف مايحدث . لقد قال لي تيبو انهم كفوا عن ان يروك البتة ،وقد

امرت بتفكيك اجزاء الراديو الذي كانوا يستمعونه ، ثم انك تدع شاليه يحاصرك ...

فلم يجب برونيه ، والتمعت عينا فيكاريوس الكبيرتان ثم انطفأتا، وكان ينظر امامه باستقامة نظرة مندهشة ، وقال بضعف :

ـ كنت اظن ان ذلك سيسرني ..

فردد برونيه :

ـ يسرك ؟

وقهقه فيكاريوس :

ـ انك لا تستطيع ان تتصور كم حقدت عليك !

والتفت فجأة ، وفسدت عيناه :

ـ منذ اليوم الذي غادرتكم فيه ، وانا اجر حياتي جرا : ولكن ذلك لم يكن يكفيكم ، وكنتم قد افسدتموني ، لقد اقمتم في محكمة تفتيش: وكنت انا المفتش الاكبر ؟ لقد كنت ((طوال الوقت ، شريكك الضالع ، وكنت تعرف انه كان بوسعك ان تعتمد علي . وكانت تمضي علي لحظات اجن فيها : فلم اكن اعرف من الذي كان يتكلم ، انت ام انا ، وسوف تعرف ذلك، وهناك ماهو اسوأ ، لقد علمتموني ان افكر بصفتي خائنا : كنت احسني مريبا ، وقد قمت بجميع تجارب الخجل والخوف ، كان الامر منظما تنظيما جيدا : ان من يتركم يجب ان يحقد عليكم او ان يستفظع نفسه . فماذا حقد عليكم ، تكونون قد ربحتم ، فانه يصبح فاشيا ، وهذا ماكان ينبغي التدليل عليه ،ولقد قاومت ماوسعني ذلك ، ولكنكم ظللتم تضربون كالصم ، وكان الاخرون ،في هذه الاثناء يفتحون لي اذرعهم . وكان بوسعي ان اوليهم ظهري ، وان اشتمهم : فكل شيء كان يخدمهم . وكنت اكتب ((من اجلكم)) في صحيفتي ، وكنت ابتهل اليكم ان تفهموا ، وكنت احاول ان احذركم ، وان ابرد نفسي : فكانوا ينقلون مقالي مشوها ، وكنتم انتم تسرعون لتطبعوا مقاطع مزورة في ((الجيه دوج)) . وكنت اصحح واكذب في صفحاتهم بالذات ، فكانوا يهنئونني على امانتي ، وكرامتي ، ولم يكن يكلفهم شيئا ان ينسبوا الي فضائل : فبمقدار ما يزيد امتلاكي لها ، تزيد درجة اجرامكم . وكنتم انتم سرعان ماتبلغون الرفاق انني كنت اكتب في جرائد رجعية ، وكنتم تقولون اني انتقلت الى ((دوريو)) ، الى جريدة ((جوسوي بارتو)) وتستشهدون بشأنهما كدليل كنتم تتآمرون معهم لتقدموا لي صورة عن نفسي كانت تنفرني وتسحرني ، فاصاب بالدوار ، واوشك ان اسقط ..

ونظر الى برونيه في اعتزاز معتم :

ـ ولقد دفنت نفسي ، ولقد صمت ؟ واذا كنت قد حقدت عليكم ، فان احدا لم يعرف ، ولم يخدم حقدي احدا ؟ وانا الذي ربحت : ولكن باي ثمن ! انت قوي يابرونيه ، ولكني كنت انا ايضا قويا : فانظر ما الت اليه .

فتمتم برونيه من غير اطمئنان :

ـ يجب التفكير بهذا قبل ان نفترق .

ـ أتظن انني لم افكر به ؟ كنت اعرف كل شيء مقدما .

ـ واذن ؟

ـ اذن انت ترى : لقد تركتكم .

وابتسم لذكرياته ، وكان المجرى الاحمر ،في لحيته ، قد تجمد ، جادلا وسط الشعر ذنبا صغيرا اسود .

ـ اوه ! نعم ، لقد حقدت عليكم ! كنت مقرورا ، في ((باكارا)) ، وكنت شبحا ، وقد جئت اليك لانك كنت حيا وحارا ، وكنت أتغذى من حياتك ، كنت طفيليك وكنت اكرهك بالمقدار نفسه ، وحين حدثتني عن مشاريعك، ادركت انك كنت هالكا وقلت في نفسي : لقد أمسكت بواحد . وكنت اعمل معك ـ واحب العمل الذي كنا نقوم به معا : كنا نساعد الافراد ، ونرد لهم مذاق الحياة ، وكان هذا نظيفا ـ وكنت اقول لنفسي : ذات يوم ،سيكون مثلي ، وكنت اريد ان اكون هنا لارى سحنتك بعد ذلك ، وكنت اتمتع بذلك مسبقا .

ونفض راسه ، ونظر الى برونيه في جهد، ثم قال بعد هنيهة :

ـ ان هذا لا يلذني .

قال برونيه بهدوء :

ـ يجب الا تنخدع بذلك : فمن الممكن ان اكون قد واجهت في هذه الايام بعض المصاعب الصغيرة ، ولكنني لن اترك الحزب ((ابدا)). فاذا وجب علي ان اخضع ، فسوف اخضع ، واذا وجب علي ان انكر نفسي ، فسأنكر نفسي ، انا لست شيئا ، وليس ثمة أهمية قط لما اكون قد اعتقدته او قلته .

وفكر فيكاريوس ، وقال بهدوء :

ـ اجل ، يمكن فعل هذا ايضا . ولكن ما عسى ذلك ان يغير ؟ ان الدودة على كل حال هي في الثمرة .

وساد صمت طويل ، ثم قال برونيه فجأة :

ـ أتعرف يافيكاريوس انك في حالة جسمية رديئة جدا ؟ فاذا هربت ، فمن الممكن جدا ان تهلك في الطريق ؟

قال فيكاريوس : ـ بكل تاكيد ، اعرف ذلك .

وصمتا ،وكان احدهما ينظر الى الاخر بخفية بصداقة خجول ، ثم مضى برونيه بخطى ثقيلة. وعند الكوخ ٢٧ ، التقى بمانويل .

وقال مانويل : ـ لقد بحثت عنك ، فاين كنت ؟

قال برونيه : ـ كنت أتنزه .

ـ اكنت تريد ان تطلب مني شيئا ؟

قال برونيه : ـ نعم ، انني بحاجة الى ثوبين مدنيين .

كانت الريح تصفع الزجاج ، وكان كل شيء يطقطق ، وكان برونيه مستلقيا على ظهره وهو يعرق ، وكان الجو باردا في الخارج وفي داخل نفسه ، وكان الليل ينتظره ، وهو يصغي ،كان مولو قد بدأ يشخر ، ولم يكن ثمة ضجة من جهة شاليه ، ان الحقد ساهر ، وظل جسم برونيه جامدا تماما ، بينما كان رأسه يستدير ببطء نحو احمرار الموقد الرمادي الذي ينطفيء. ونظر الى الاطياف المألوفة تتراقص ، وكان النور العذب الاحمر يزداد عذوبة ، وهو الان نظر مليء بالعتاب . يجب ان أثق بالحرارة وانام : سيكون كل شيء بسيطا ، ولم اكن هنا في وضع سيء ، بعد كل حساب .

وانبعث هسيس منتظم متكلف ، فانتفض : آن الاوان ، ليس بعد من حقد ، ولا من شاليه. وادنى من عينيه معصمه المقلوب ، فرأى ضوءين صغيرين شاحبين : العاشرة وعشر دقائق، انني متاخر . وانسل من سريره ، فارتدى ثيابه بصمت ، على اشعة النار المحتضرة . واذ كان يرتدي معطفه ، أنت النار وانطفأت ، فامتلأ جوف عينيه بالسمادير ، وانحنى فعثر على حذائه بالتلمس ، وتناوله باليد اليسرى واتجه الى الباب . وتصارع معه لكي يفتحه : فقد كانت الريح تدفعه كأنها انسان ، وانسل الى الخارج ، ونقل حذاءه الى اليد اليمنى ، فتشبث باليسرى بالمقبض الخارجي ، ثم ادار المصراع على مهل حتى الكوة . وانتهى الامر. وفي الرواق ، كانت العاصفة ، وقد دخل بكلتا رجليه في مستنقع صغير ، فانتعل حذاءه وانحنى ليعقد خيطه ، فدفعته الريح واوشك ان ينكب على رأسه . واذ نهض ، صفعه البرد على فمه واذنيه ، فظل جامدا لاترى عيناه شيئا ، حتى ولا الليل ، كانت باقات من الزهر البنفسجي تعميه . وفي شكوى الريح الهائلة المزبدة ، ميز ضجة ابتهاج : انها هارمونيكا بنين . وداعا . وداعا . وغطس ، فتعثر وترنح وحوله اصطفق الغطاء الهائل الاسود ، فمد يديه ، والليل يخنقه ، فالتقى حاجز الكوخ ، فسار بحذائه مستندا عليه بكتفه ، وكان شعره يرفص ، وقد حملته موجة فانعطف الى الطريق ، حيث الليل مقيم في كل مكان :ليس ثمة مايحميه ، وأحس نفسه عاريا ، ان الليل العالي شعب ، ملايين عيون تراه . ومشى وهو يقاوم الريح ، فاذا بالليل ينشق : مصباح كهربائي في البعيد ، خيط ذهبي يركض على الماء الاسود حتى قدميه ، وينسحق برونيه على كوخ ممسكا انفاسه . خفق نعال ، رجلان يمران ومعطفاهما مجنونان ينجدلان ويقفزان حول جنبيهما . وينغلق الليل من جديد ، فيستعيد برونيه سيره ، ويخبط في الوحل : ان عليه ان يخبط طوال الليل . واصطدم بكوخ اول ، ثم بثان : هنا المكان . ودخل من غير ان يطرق. فنظر اليه تيبو وبوبيه مشدوهين وحين عرفاه ، اخذا يضحكان . وكان برونيه يلهث، فبسم لهما ، وهو يطرف بعينيه ويرتعش ، نافضا البرد والليل .

ـ انها ريح تنزع قرون الازواج المخدوعين ؟

فقال تيبو في عتاب : ـ وما كانت حاجتك

الى اختيار هذه الليلة الكلبة !
قال برونيه : ـ هذا مقصود ، حين تهب الريح ، تصر الاسلاك الشائكة .

واتخذ بوييه هيئة الخبث :
ـ استعد ، فهناك مفاجأة .
ـ اية مفاجأة ؟

قال تيبو : ـ اغمض عينيك ، والان افتحهما .
فعاد برونيه يفتح عينيه ، فيرى مدنيا :
ـ الا تجده لطيفا هكذا ؟
فلم يجب برونيه : كان ينظر الى المدني فيخيفه ذلك .
ـ اين كنت ؟

فبسم له فيكاريوس :
ـ لقد اختبات تحت الاغطية حين دخلت .
وكانت عليه هيئة من يخرج من خزانة اومن قبر ، ولكنه لم يكن يعزف ذلك ، كان قد حلق لحيته ، وكان يرتدي قميصا ابيض بلا ياقة ، ويبدو منضايقا في ثوبه الكستنائي وجلس فشبك ساقيه ، وارتفق الطاولة في انبساط خشن بعض الشيء كما لو ان جسمه كان يتذكر بغموض انه قد عاش .

قال برونيه : ـ لم اكن احسبك سمينا الى هذا الحد .
ـ الواقع الصقت شرائح خبز في كل مكان من جسمي : ويجب ان تعمل مثلي .
ـ اين هو ثوبي ؟
ـ تحت السرير .

فنزع برونيه ثيابه وارتدى وهو يرنجف قميصا ازرق ذا ياقة صلبة ، وبنطالا مخططا ، ولبس معطفا اسود ، ثم ضحك :
ـ لابد اني اشبه كاتب عدل .

وكف عن الضحك : كان فيكاريوس ،بدوره ينظر اليه في ذهول ، والتفت برونيه وسأل تيبو :
ـ اليست هناك ربطة عنق ؟
ـ لا .
ـ فليكن .
وانتعل الحذاء المدني ، ولم يتمالك ان كز وجهه :
ـ انه ضيق .
ـ احتفظ بحذائك العسكري ؟
ـ ماذا تقول ؟ على هذا النحو ، قبضوا على ساروزييه . لا ، لا ، لابد من ان يسير الامر ، وسوف يسير .

وكانا وجها الى وجه في ثيابهما التنكرية ، وتبادلا بسمة خادعة . والتفت برونيه نحو تيبو وبوييه : هذان ، كانت هيئتهما حقيقية .
قال تيبو : ـ اغلقا هاتين .

ومد لهما مطرتين مسطحتين :
ـ انهما للماء .

ودس برونيه المطرة في جيبه الخلفي وقال :
ـ المعطف ...
ـ هوذا !

وساعدهما بوييه وتيبو ، في مذلة مصطنعة، على ارتداء المعطفين ، ثم تراجعا ضاحكين :
ـ اوه ! لا ! لا ! يالهذه الهيئة !

وتفحص تيبو برونيه بعين ناقدة :
ـ حذار من ان يعلق المعطف بالاسلاك الشائكة : ذلك انك لست معتادا على هذا .
قال برونيه : ـ لاتخف .

وضحكوا لحظة ، ثم صمتوا وتلاشى من جديد مرحهم اللاهث ، ودس برونيه الخارطة والمصباح والبوصلة في جيوبه . وتحقق فجاة من انه مستعد ، فبعث ذلك البرد في ظهره . وقال :
ـ وهكذا ! آن الاوان .

فارتعش فيكاريوس وقال :
ـ هكذا .

وجعلت يداه المرتبكتان تزرران بهدوء معطفه . وكان برونيه ينتظر ، محاولا ان يشد الزمن الى خلف . وانتهى الامر : ان الزرالاخير هو في عروته ، وليس بينهما وبين الليل شيء بعد . ورفع برونيه عينيه ، فنظر الى المقعد والسرر وفتيل النواسة المزيت ، والمنشور الذي يرقص في طرف الفتيل ، والدخان الاسود الذي يتفسخ نحو السقف، والاشباح الصميمية الكبيرة التي تدور : كان الطقس حارا ،وكانت تنبعث رائحة الانسان والغبار ، وخيل اليه انه يترك بيته ، وكان تيبو وبوييه قد اصبحا ممتقعين كل الامتقاع ، وقال تيبو :
ـ يا للمحظوظين الملعونين !

وكان يتظاهر بانه يحسدهما ، بدافع الكرم، وهز فيكاريوس راسه بهدوء وقال بهدوء :
ـ انني خائف .

قال برونيه : ـ لاباس ، فهذه لحظة تقضيها، ثم تسير الامور تلقائيا بمجرد ان نصبح في الجانب الاخر .

قال فيكاريوس : ـ لست خائفا من هذا .
ولحس شفتيه الجافتين :
ـ ماعسانا ان نجد هناك ؟

وأحس برونيه بغصة صغيرة مزعجة ، ولم يجب ، الليل : ان باريس في نهاية ، يجب ان نعاود الحياة ، وتكلم تيبو في استباق :

ـ فور وصولكما الى باريس ، لاتنسيا ان تكتبا الى امراتي ، السيدة تيبو ، سان سانور ان بويزاي : وهذا يكفي ، اكتبا لها عن اخباري واني في حالة جيدة ، واني لست حزينا ، ولتكتب لي انكما وصلتما بخير . وليس عليها الا ان تكتب : لقد وصل الاولاد بخير .

قال برونيه : ـ اتفقنا .
وكان اللوح الخشبي هناك ، مستندا الى الحاجز ، وجسه : انه صلب ثقيل . ووضعه تحت ذراعه ، واقترب منه تيبو وارسل له ضربة مرتبكة على كتفه :

ـ يالكما من محظوظين ! يالكما من زوجين مخدوعين !

وتوجه شنايدر نحو الباب ، فتبعه بوييه . وقال بوييه :
ـ في يوم من الايام ، ربما سنفعل مثلكما .
قال تيبو : ـ ربما رأيتماننا عائدين .
فبسم لهما شنايدر وقال :
ـ ان زوجتي تسكن في المنزل ١٣ شارع كاردينه .

واستدار برونيه ، وكان تيبو وبوييه ملتصقين فيما بينهما ، وبسم لهما تيبو بسمة حزينة رقيقة ، ودفع نحوهما وجهه المسطح الضخم الذي كانت الطيبة تكتسحه ، وكان فمه العريض يضحك حبا وعجزا : كان وجهه هبة غير مجدية .

ـ انني اقول لكما خراء !
وردد بوييه وهو يحملق بعينيه :
خراء ! خراء !
ـ وفكرا احيانا بالرفاق .
قال فيكاريوس : ـ كم سنفكر بهم !

ـ ولا تكونا احمقين اذا رأيتما انكما قد قبض عليكما . لاتحاولا ان تهربا ، لان لديهم اوامر بقتلكما .

قال برونيه : ـ سوف يقبض علينا . اطفئا النواسة .

وأكل الليل الى الابد هذين الرأسين التوامين وبسماتهما الاخيرة ، وانغمر المربع في الظلام والبرد . وكانت صفعات الريح في الوجه ، وكان في الفم مذاق الفولاذ ، وفي العينين اسطوانات بنفسجية تدور . وانصفق الباب خلفهما . فانقطع الانسحاب : ان امامهما الان نفقا ، وصبرا طويلا ، وفي البعيد البعيد ،فجرا مشكوكا فيه ، والتصق الوحل بالارجل .وكان برونيه سعيدا لان فيكاريوس كان يمشي بقربه، وكان بين الفينة والفينة يمد يده يلمسه ،وكان بين الفينة والفينة يشعر بيد تلمسه ،واوقفتهما ريح عاصفة ، فارتدا نحو الاكواخ ليحتميا ، ولكنهما لم يريا شيئا . وصدم برونيه لوحة بنافذة ، فقفز الى خلف : ومن حسن الحظ ان الزجاج قاوم الصدمة . وسمع شتيمة وضربة صماء : لقد اصطدمت ركبة فيكاريوس بدرجة سلم ، وانهضه برونيه وصاح في اذنه:

ـ هل اصبت بسوء ؟
ـ لا . ولكننا لانستطيع انتستمر على هذا النحو .

وارتدا الى الطريق . ولم يحس برونيه فيه بالارتياح ، فقد كان الطريق مفرط الخلو وكانا مكشوفين من كل مكان . وقام بحساب قلق في انهما لابد ان يكونا قد بلغا مستوى المشفى : ولكنه عينيه ظلتا تبحثان في الظلام . ثم انحفر ثقب في الليل ، وانفتح باب عن اشراق كالح : انه مركز القيادة ، خراء ، لقد حدنا اكثر مما ينبغي الى الشمال ، وعلق برونيه بيده الحرة فيكاريوس وجذبه نحو اليمين ، ثم مضيا ، فصدم اللوح حاجزا ، وقفز برونيه الى جانب موشكا ان يقلب فيكاريوس ، ثم اخذا يركضان . ورفع برونيه لوحه محاولا ان يحمله عموديا ، ولكن ذلك كان مزعجا ، لانه كان يحك الارض . وظل يعدو ، مادا ذراعه اليسرى ، وراحته الى امام ، وارتمى على جدار الليل ، فتراجع الجدار ، ولكن برونيه كان يحسه احيانا في طرف يده ، ويشعر بانه يوشك ان يقتل نفسه فيه ، فيسيل الخوف في ساقيه ويعكر مشيتهما وظل نعلاه طويلا يسحقان وحلا ، ثم عضا ارضا صلبة ، وانبثقت جزيرة : « الساحة السوداء » تلك هي مرحلة اولى ، واحس برونيه بالحر ، وكان حذاؤه يؤلمه اقل مما كان يخشى ، وارسل قبضته في جنب فيكاريوس ، فسمعه يضحك ، بقي ان يتخذا وجهتهما . وتناول ذراعه ،وسارا في وجه الريح ، وأحسا فجأة انهما مدفوعان بجنبيهما ، ثم نبتت لهما اجنحة ، فطارا .

وقال فيكاريوس : ـ اننا ندور بلا فائدة .

واستدارا فاتخذا تيار الريح ، متشابكي الذراعين ، وكانت الريح تهدر ، ازيز حشرة يخرق ذلك البهرج العاطل ، وينتفخ ، وجعل قلب برونيه يسرع في الخفق : الاسلاك الشائكة وفكر : يجب الان ان نعرف مواضع المباول . وفي اللحظة نفسها حملت الريح الى انفه نتن بول وغوط . وانساقا على ضجة الرائحة ،فدلفا بحذاء المباول ، ثم جثوا خلف كومة من الاقذار، وكانت الاسلاك الشائكة على بعد متر منهما تصفع الهواء وهي تدور كحبال القفز ، وكان ثمة الضجيج الاكبر . كان هناك ليلان : الليل الذي يترخى خلفهما ، كتلة ضخمة غاضبة ، اصبحت الان خارج المعركة ، والليل الاخر الدقيق ، المتواطيء ، الذي يبدأ فيما وراء الحاجز ، نورا اسود . وشد فيكاريوس على يد برونيه : انهما سعيدان . وأمر برونيه اصابعه بهينة على اللوح . كان ثمة ثلاثة صفوف من الاسلاك الشائكة على عمق متر وعشرين ، وطول اللوح متر وثلاثون ، وسوف نتدبر الامر . وفجأة ، ضغط فيكاريوس على معصمه ، فارتعش برونيه : كان الحارس يسير في الطريق . واصغى برونيه الى هذه الخطوة التي لاترى ، فاخترقه فرح مثلوج : ان الجميع توافدوا الى الموعد ، وسوف يكون البدء ممكنا كان قد اختبأ ثلاث ليال متوالية خلف المباول، يراقب الحارس : انه الان يغادر محرسه ، قبالتهما تماما ، فيجتاز زهاء مئة متر ثم يعود الى المحرس . فاذا حسبنا ستة في الساعة ، فان الذهاب والاياب يستغرقان دقيقتين : وان معهما ثلاثين ثانية . وسمع الخطوة تبتعد ، فأخذ يعد بصوت منخفض ، وكانت الارقام الاولى تلتصق بكل خطوة ، ثم ساد الصمت ، فان الحارس قد ذاب ، فاذا هو في كل مكان ، بل هو الليل نفسه بالمرصاد ، وكانت الارقام تسقط في الفراغ وتخلف صدى اجوف . وعند الرقم مئة وتسعة عشر ، ولدت الخطوة من جديد فتكشف الحارس ، وسال في جوف الليل ، وحال فجاة الى هذا الخفق المتوحد الشاق ، فمر امامهما ، وتوقف ثم مضى مرة اخرى . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة .... وهذه المرة ، عاد لدى الرقم مئة وسبعة وعشرين ، وفي المرة التالية لدى الرقم مئة واثنين وعشرين ، فلنعتمد على مئة وعشرين ، فذلك اوثق . وعاد يعد ، واذ بلغ خمسة واربعين وضع يده على كتف فيكاريوس ، فاحس باصابع قاسية تشد على معصمه،فانفعل متاثرا ، انها اصابع الصداقة . ونهضا ، ومد برونيه يده ، فقفزت عليها نحلة من حديد وحرثت راحته ، فامر طرف اصابعه على السلك متجنبا شوكة اخرى ، ولمس وتدا من غير ان يكف عن العد ، ثم رفع اللوح ووضعه بهدوء قدامه : فتماسك مقفزا متارجحا باسترخاء بموجة الاسلاك الشائكة المثلثة ، وكانت يدا برونيه مليئتين بالوحل ، فمسحهما بالوتد متمهلا ، سبعة وخمسون ، ووضع قدمه اليسرى على السلك الشائك التحتي ، شادا نعله بالوتد ثم تأهب لاندفاعه متحاملا على نفسه ، ثم اسند قدمه اليمنى الى السلك الاوسط ،ورفع ركبته اليسرى فمسحها براس الوتد ، ثم وضعها اخيرا على اللوح ، تسعة وخمسون ، وها هو الان يزحف على ركبتيه ويديه ،والزمن يجري متمهلا ، ستون ، وهناك ، كان الحارس قد استدار ، وكان ينظر اليه ، والى يمين برونيه كان الليل منارة . وتقدم فمد يده ولمس الوتد الثاني ، وتقدم ايضا رغم التارجح ،ولمس الثالث ، ثم تراجع قليلا مرتدا على اللوح الذي كاد يسقط ، ثم استقام تلقائيا : انه فيكاريوس الذي تعلق به . وتحسس برونيه بقدمه الفراغ فالتقى سلكا حديديا ، اثنان وستون ، واراد ان يقفز لانه كان يخشى ان يعتدي على وقت فيكاريوس ، فتعلق اسفل معطفه بشوكة،فليكن وجعله نفاد الصبر يرتجف ، فقفز ، فتمزقت ردة معطفه ، وأمسك اللوح بكلتا يديه وجعل يهزه بهدوء ليشير الى انه قد وصل بخير . وصرت الاسلاك الشائكة ، وتدحرج اللوح الخشبي ، فامسكه برونيه بصلابة ، وفكر بالحارس ، وهو يحس انه عائد اليهما ، وفكر بفيكاريوس في غضب : ما الذي يفعله ، ذلك الفرج الاحمق ، انه سيوقفنا في الفخ ، ومد يدا فالتقى براس ، كان فيكاريوس يتقلب بمشقة على لوحة ، وسمعه برونيه يلهث ثم انقطع كل شيء . ولامس حذاء كمه ، فالتقطه واخفضه على مهل حتى السلك الشائك ،وقفز فيكاريوس الى الارض ، واخترقهما برق من الفرح ، انهما حران ! ومن اعلى المرصد ، صعقهما برق اخر ، فطرفا بعيونهما من غير ان يفهما ،واضحت الطريق بيضاء من الشمس في جوف حلبة من الظلمات ، والتمعت البرك فكانت تفص باللآليء . وقبض برونيه على فيكاريوس من كتفه ، وقسره على الركض ، فانفجر الرصاص ، وظلا يعدوان ، وكان الرصاص يئز ، وهو يطلق عليهما من المرصد والمحرس . من المحرس : لقد اخفوا فيه اذن حارسا اخر فوشى بنا ، وظل برونيه يعدو ، والطريق عريضة كالبحر ، ان الجميع يرونه ، وانه لكابوس ، والرصاص يئز . وفجاة ترنح فيكاريوس واسترخى . فرفعته قبضة برونيه، وسقط مرة اخرى ، فدفعه برونيه وجره ،كانت الغابة هنا ، بكل مابقي من الليل ، فقذفه بين الاشجار ، ووقع على ظهره ، فاخذا يتقلبان على الثلج ، وكان فيكاريوس يئن ، فقال له برونيه :

ـ اخرس !

فان فيكاريوس : ـ انك توجعني .

وتدحرجا على المنحدر ، وهدر فيكاريوس ، فلم يتركه برونيه ، وكان الغضب يخنقه ، لقد وشوا بنا ، وكان الرصاص يصرخ فوقهما .وظلا يتدحرجان ، وتلقى برونيه جدارا على راسه، فجحظت عيناه من محجريهما ، لم يكن ذلك اوان الإغماء ، وبذل جهدا عنيفا ، وكانت اصابعه تخمش الثلج ، وعاد يستقيم ، فاذا راسه يصطدم بجذع ، واذا هو محشور بين جسم فيكاريوس وجذع شجرة ، وتحرك على مهل ، فصدمت ذراعه كتف فيكاريوس وانتزع منه صرخة حقد :

ـ اهرب !

وجثا برونيه على ركبتيه ، هو الان يعلم انه قد خسر ، ولكنه سيمضي حتى النهاية ، ودس يديه تحت جنبي فيكاريوس ، واراد ان يرفعه ويحمله بين ذراعيه ، ولكن فيكاريوس دفعه ، واعاد برونيه الكرة ، فكانا يتصارعان من غير ان يرى احدهما الاخر : وفجاة ، فاء فيكاريوس على يديه ، فتركه برونيه ، فعاد الى السقوط . وفي الاعلى ، كانت حفلة الجنيات قائمة ، وكانت الجذوع ترقص في النور . وادنى برونيه وجهه من وجه فيكاريوس وقال بصوت مبتهل :

ـ فيكاريوس !

فقال فيكاريوس : ـ اهرب ! كل شيء قد حدث بسبب غلطتك .

قال برونيه : ـ لن اذهب ، فانما فررت لارافقك .

قال فيكاريوس : ـ كل شيء قد حدث بسبب غلطتك .

فقال برونيه : ـ ولكننا سنبدأ من جديد. سوف اتحدث الى اعضاء « الحزب » انني ..

فأخذ فيكاريوس يصيح :

ـ نبدأ من جديد ! الا ترى انني اموت ؟

وبذل جهدا عنيفا واضاف بمشقة :

ـ ان « الحزب » هو الذي يجعلني اموت .

وقاء في الثلج ، ثم سقط مرة اخرى ،وصمت وجلس برونيه ، فجذبه اليه ، ورفع له راسه على مهل ، فاسنده الى فخذه . اين تراه قد اصيب ؟ وامر يده على المعطف المدني ، وعلى القميص المدني ، فكان كل شيء مبللا ، أكان ذلك ثلجا ام دما ؟ ونُفذ الخوف اليه فاثلجه : انه سيموت بين يديه ، ودس يده في جيبه فأخرج مصباحه ، وكانوا هناك فوق يعرخون وينادون ، فلا يبالي برونيه بهم . وضغط على الزر ، فخرج من الليل رأس مزرق . ونظر اليه برونيه . وكان لا يبالي بالالمان ، ولا يبالي « بالحزب » ، فليس لشيء بعد من أهمية ، وليس شيء بعد بموجود ، سوى هذا الرأس الحاقد الساطع ذي العينين المغمضتين . وتمتم : « المهم ألا يموت » . ولكنه كان يعلم ان فيكاريوس سيموت : ان البأس والحقد كانا يصعدان رويدا رويدا مجرى هذه الحياة المضيعة ويفسدانها منذ مولدها . ان هذا المطلق من الالم والعذاب ، لن يستطيع أي انتصار للبشر أن يمحوه : ان « الحزب » هو الذي يجعله يموت ، فحتى لو ربح الاتحاد السوفياتي فان الرجال متوحدون . وانحنى برونيه ، فأغرق يده في شعر فيكاريوس الملوث ، وصاح كما لو كان ما يزال يستطيع ان ينقذه من الفظاعة ، كما لو أن رجلين ضائعين يستطيعان، في آخر دقيقة ، ان يقهرا الوحدة :

ـ « الحزب » : انني لا ابالي به ، فانت صديقي الوحيد .

ولم يكن فيكاريوس ليسمع ، وكان فمه المر يحشرج ويصنع الفقاقيع، بينما كان برونيه يصرخ في وجه الريح :

ـ صديقي الوحيد !

وفغر الفم ، وتدلى الفك ، واصطفق الشعر ، وهذه الهبة الشديدة التي تصفعهما وتفر ، انما هي الموت . وانشده على هذا الوجه المذهول ، وكان يفكر : ان هذا الموت انما يصيبني أنا . واقتحم الالمان المنحدر وهم يتشبثون بالاشجار ، فنهض وسار للقائهم : ان موته انما هو في بدئه فحسب .

جان بول سارتر

ترجمة سهيل ادريس

دار الثقافة ببيروت تقدم

كتبا حديثة صدرت بمطلع شهر يناير ١٩٦٢

***

٧٠٠	حياة القيروان وموقف ابن رشيق منه	الدكتور عبد الرحمن ياغي
٤٠٠	ديوان ابن رشيق القيرواني	الدكتور عبد الرحمن ياغي
٤٠٠	مناهج العلماء المسلمين	للدكتور روزنتال ترجمة الدكتور انيس فريحه
٥٠٠	سياسي محترف	حسن جمال الحسيني
٢٥٠	الادب الاميركي	الدكتور جميل جبر
١٠٠	اسرار الكون (السلسلة الثقافية ـ ١)	ترجمة نسيب وهيبه الخازن
١٠٠	اسرار الحياة ((ـ ٢)	ترجمة عاصي وسميا
٤٠٠	المسوحيات ١ ـ ٢	جبران مسوح
٢٠٠	دخان ولهب	عبد الكريم الجهيماني
٤٠٠	ديوان الشافعي	زهدي يكن
٣٠٠	ديوان القتال الكلابي	الدكتور احسان عباس
٢٥٠	الحرية عند العرب	ابراهيم حداد
٥٠٠	تونس العربية	احسان حقي
٥٠٠	نرسيس	انور قصيباتي
١٥٠	المعطف ـ لغوغول	ترجمة عوض شعبان
٤٠٠	القصة الحديثة ـ لفردريك ج. هوف	من ترجمة بكر عباس
٣٠٠	الشعر ـ للويز بوجان	ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي

*

تطلب جميع هذه الكتب من الناشر دار الثقافة وعموم الكتب العربية

دار الثقافة ـ ص.ب ٥٤٣ ـ تلفون ٢٣٠٥٦١ ـ ٢٤٥٠٥٨

ومن مكتباتها : مكتبة دار الثقافة ساحة رياض الصلح تلفون : ٢٣٥٦١

مكتبة الجامعة ـ شارع بلس ـ عمارة اديسون تلفون ٢٩١٩١٥

ومن عموم المكتبات في العالم العربي